

## الفصل الثاني

### القرآن الكريم

- تعريف القرآن الكريم
- الغرض من إنزال القرآن الكريم
- جوانب الهداية والإرشاد في القرآن الكريم
- إعجاز القرآن الكريم
- القرآن والعلم
- ترجمة القرآن الكريم



## القرآن الكريم

### ● تعريف القرآن الكريم :

المشهور بين علماء اللغة : « أن لفظ القرآن في الأصل مصدر مشتق من قرأ . يقال : قرأ قراءة وقرأنا ، ومنه قوله تعالى « إن علينا جمعه وقرآنه » فإذا قرأناه فاتبع قرآنه»<sup>(١)</sup> - أى قراءته .

ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علما شخصيا<sup>(٢)</sup> على الكتاب المنزل على محمد ﷺ .

وعلماء الشريعة يعرفون القرآن : بأنه كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، والمتنول الينا بالتواتر .

وبعضهم يزيد على هذا التعريف قيودا أخرى ، مثل : المعجز ، أو المتحدى بأقصر سورة منه ، أو المتعبد بتلاوته ، أو المكتوب بين دفتي المصحف ، أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس .

والواقع أن التعريف الذي ذكرناه انفا تعريف جامع مانع ، لا يحتاج الى زيادة قيد آخر ، وكل من زاد عليه قيودا أو قيودا مما ذكرناه لا يقصد بذلك الا زيادة الايضاح بذكر بعض خصائص القرآن التي يتميز بها عما عداه . ومعلوم أن للقرآن الكريم خصائص كثيرة يتميز بها عن كل ما عداه من كلام إلهي أو غير إلهي ، ككونه معجزا أو متعبدا بتلاوته .

ومعلوم أيضا - أن للقرآن صفات يشاركه فيها غيره من كلام الله أو كلام البشر ، ولكنها صفات لازمة لا تنفك عنه ، لأنها من عناصر قرآنيته ، ولو أنها انفكت عنه لخرج عن كونه قرآنا ، وذلك كوصف كونه عربيا الذي يشاركه فيه الحديث النبوي والحديث القدسي ، وكوصف كونه متواترا الذي يشاركه فيه بعض الأحاديث النبوية .

ونرى لزوماً علينا أن نذكر بعض هذه الخصائص والصفات بشيء من

(١) وهناك آراء أخرى في أصل الكلمة واشتقاقها - راجع الاتقان للسيوطي ، ومناهل العرفان للشيخ محمد

عبدالعظيم الزرقاني - والأيتان من سورة القيامة : ١٧ ، ١٨

(٢) يرى بعض العلماء أنه علم جنس يصدق على القرآن كله وعلى أبعاضه . وكونه علما شخصيا هو الراجح - راجع مناهل العرفان .

التفصيل والايضاح حتى لا يقع لبس أو خلط بين ما هو قرآن وما خرج أو هو خارج من الأصل عن كونه قرآنا :

١ - فمن خصائص القرآن كونه معجزا ، واعجاز القرآن خصوصية خصه الله بها من بين كتبه المنزلة على سائر الانبياء عليهم السلام ، وميزة تميز بها عن كل كلام اخر منسوب لله سبحانه . أو لأى انسان وبأى لسان .

٢ - ومن خصائص القرآن الكريم : كونه متعبدا بتلاوته فقراءة ما تيسر منه ركن من أركان الصلاة لا تتم بدونه ، وأيما صلاة وقعت خالية من القراءة مع الفطرة عليها فهي باطلة ، وقراءة القرآن خارج الصلاة عبادة أيضا ، ولم نعرف مثل هذه الخصوصية ثابتة لشيء آخر من الكتب السماوية أو غيرها .

وعلى هذا فالحديث القدسي ليس قرآنا مع كونه - على الصحيح - منزلا من عند الله تعالى على محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، وذلك لأنه فقد عنصرين من عناصر القرآنية ، وهما : الإعجاز والتعبد بتلاوته ، كما فقد عنصرا آخر يأتي بعد ، وهو التواتر .

ولو ادعى مدع ثبوت بعض الأحاديث القدسية بالتواتر - وما أظن ذلك - فانها لا تكون قرآنا أيضا لفقدتها العنصرين السابقين معا ، مع أن فقد واحد منهما كاف في تخلف وصف القرآنية عنها .

٣ - ومن صفات القرآن التي لا تنك عنه : كونه عربيا ، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ناطقة بأنه نزل من عند الله كذلك :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »<sup>(٣)</sup> .

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »<sup>(٤)</sup> .

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون »<sup>(٥)</sup> .

« نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين \* بلسان عربي

مبين »<sup>(٦)</sup> .

وعلى هذا فأى خروج بالقرآن الكريم عن لفظه العربي المنزل من عند الله

يزيل عنه حقيقة القرآنية .

وإذن فتفسير القرآن الكريم ، وترجمته الى غير العربية - مهما روعى فيها من

المحافظة على معانيه ومرامييه - لا يعدان قرآنا ، ولا يكون لأى منها ما للقرآن

(٤) الشورى : ٧

(٦) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥

(٣) ابراهيم : ٤

(٥) فصلت : ٣

من حرمة وقداسة<sup>(٧)</sup> ، ولا ما فيه من خاصية التعبد به وروعة الاعجاز ، لأنه خرج بذلك عن كونه كلام الله الى كونه كلام البشر ، والبشر يخطيء ويصيب ، ومحال أن تقوم عبارة انسان - عربية كانت أم غير عربية - مقام عبارة الله تعالى في جودة معانيها ودقة مراميتها ، وخصائص أسلوبها وبراعة نظمها ، وسر فصاحتها وروعة بيانها .

وهنا نستطرد الى مسألتين هما تعلق بهذا الموضوع :  
المسألة الأولى : هل معنى أن القرآن عربي أنه لا يحتوى على شيء من لغات غير عربية ؟

والجواب عن هذا : أن القرآن الكريم ليس فيه قطعاً جملة مركبة بلسان غير عربي ، وإنما يوجد فيه باتفاق أسماء غير عربية هي أعلام على أشخاص بأعيانهم : كإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب، وإسرائيل ، وموسى ، وعيسى . . . ووجودها في القرآن لا يخرج به عن كونه عربياً ، لأن الأسماء التي وضعت أعلاماً لأشخاص تبقى كما هي ، ولا يتصرف فيها عند نقلها الى لغات غير لغاتها الأصلية ، وإلا لكان معنى ذلك : ازالة الاسم عن مسماه وإطلاق اسم آخر عليه لا يعرف به ولا يعينه .

وفي القرآن الكريم أسماء ليست أعلاماً للأشخاص ، مثل : استبرق ، وقسطاس ، وسجيل ، ومشكاة . . . وغيرها .  
وقد اختلف العلماء في أصل هذه الأسماء :

فمنهم من قال ان هذه الكلمات مما انتقلت فيه اللغات ، فهي موجودة في اللغة العربية وموجودة في غيرها ، ولا يخرج بالقران عن كونه عربياً أن تكون بعض كلماته موجودة في لغة أخرى ، لأن اتفاق بعض اللغات في استعمال لفظ ما للدلالة على معنى معين ، لا يخرج عن كونه أصيلاً في هذه اللغة أو في تلك ، وإنما يخرج فقط عن نطاق الاختصاص والانتساب الى لغة بعينها . ومن العلماء من قال : ان هذه الألفاظ أعجمية الأصل ولا زالت أعجمية ، ووجودها في القرآن لا يخرج عن كونه عربياً ، لأنها قليلة جداً ، واقتباسها وادماجها في هذه الكثرة الساحقة من الكلمات العربية التي احتواها القرآن مما يجعلها تميم وتلاشي حتى لا تكاد تحس منها نبوة العجمة .

---

(٧) وحرمة القرآن وقداسته لا يجوز لغير المتوضىء من المصحف ، كما لا يجوز للجنب ولا للحنافس من المصحف ولا قراءة القرآن ، أما تفسير القرآن وترجمته فجازت مسها وقراءتها للمحدث حدثاً أصغر أو أكبر ، لزوال حقيقة القرآنية عنها .

وذهب فريق ثالث من العلماء الى أن هذه الألفاظ أعجمية الأصل ، ولكنها - تبعا لنظرية تداخل اللغات في فقه الله - استعملت من قديم وقبل نزول القرآن الكريم في اللسان العربي ، ولانت بها ألسنة العرب حتى أصبحت عربية بالاستعمال ، ولا يخرج القرآن عن كونه عربيا باحتوائه على بعض هذه الألفاظ المعربة . وهذا الرأي الأخير هو أشهر الأقوال الثلاثة وأرجحها .

**المسألة الثانية :** نقل عن الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه : أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة ، وزعم زاعم - بناء على ذلك - أن أبا حنيفة يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط ، وهذا يناقض ما قلناه من أن القرآن اسم للفظ والمعنى معا .

وتوضيح المسألة : أن ما نقل عن أبي حنيفة - مخالفاً له سائر الفقهاء حتى أصحابه - من جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة ، محمول على أن الصلاة مناجاة لله تعالى ، وما يقوله المصلى من معاني القرآن باللسان الأعجمي في صلاته ، لا يقوله على أنه قرآن ، وإنما يقوله على أنه مناجاة منه لله عز وجل ، والمناجاة بأى لسان جائزة باتفاق .

ولكن بعض الفقهاء من أتباع أبي حنيفة رضى الله عنه يرى - والحق معه - أن هذا التوجيه لما نقل عن أبي حنيفة من جواز القراءة بالفارسية في الصلاة غير مستقيم ولا مقبول ، ويقرر : أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا الى القول بعدم الجواز<sup>(٨)</sup> .

٤ - ومن صفات القرآن التي لا تنفك عنه : كونه متواترا : أى رواه جمع كثير عن جمع كثير يحيل العقل اتفاقهم على الكذب من لدن سماعه من رسول الله ﷺ الى أن وصل الينا ، وروايته على هذا النحو تفيد اليقين بقراءته . وعلى هذا ، فما روى بطريق الأحاد - وهو ما لم يبلغ حد التواتر بأن رواه واحد ، أو رواه جماعة لا يحيل العقل اتفاقهم على الكذب - على أنه من القرآن لا يعتبر قرآنا ، لأن رواية الأحاد تفيد الظن ولا تفيد اليقين ، والقرآن لا يثبت بالظن أبدا .

وإذن ، فما يروى بطريق الأحاد عن ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهما من الصحابة من بعض ألفاظ على أنها من القرآن : كقراءة أبي وابن مسعود في

(٨) انظر الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٨٣ - ٤٨٤ .

كفارة اليمين « . . . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات »<sup>(٩)</sup> بزيادة لفظ « متتابعات » .

وقراءة ابن مسعود في آية الإيلاء « فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم »<sup>(١٠)</sup> بزيادة لفظ « فيهن » .

وقراءة ابن عباس في آية الحج « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج »<sup>(١١)</sup> بزيادة جملة « في مواسم الحج » .

وقراءة سعد بن أبي وقاص في آية الكلاله « وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منها السدس »<sup>(١٢)</sup> بزيادة جملة « من أم » .

. . . ما يروى من ذلك ليس قرآنا ، لفقده عنصر التواتر الذى لا بد منه في تحقق القرآنية وثبوتها ، وتسمية بعض المتأخرين من العلماء له قرآنا تساهل منهم لا أراه مقبولا ولا سائغا في مثل هذا المقام الذى يتحتم فيه الدقة وعدم التسامح في التعبير .

والظن بالعلماء الذين تسامحوا فعبروا عن هذه الكلمات بالقرآنية : أنهم لا يقصدون أنها قراءات مروية عن تنسب اليه من الصحابة ، وإنما قصدهم : أنها تفسيرات لهم .

أولعل بعض الصحابة كانوا يفسرون القرآن ويرون جواز اثبات التفسير بجانب القرآن في مصاحفهم التى كانوا يكتبونها لأنفسهم ، فظنها بعض الناس - لتداول الزمن عليها - من أوجه القراءات التى صحت عن رسول الله ﷺ ورواها عنه هؤلاء الأصحاب .

ومهما يكن من شىء يقال في توجيه تسميتها قرآنا فهى ليست من القرآن في شىء ، ومن يحتج بها من الفقهاء لا يحتج بها على أنها قرآن ، وإنما يحتج بها على أنها من قبيل أخبار الأحاد التى تروى عن رسول الله ﷺ ، وأخبار الأحاد مما يجب العمل به وتقوم به الحجة الا في باب العقيدة .

٥ - ومن صفات القرآن اللازمة له : كونه منزلا على محمد ﷺ ، ومعنى هذا : أن ما أنزل على غيره من الأنبياء لا يكون قرآنا حتى ولو حكاه القرآن الكريم ، على معنى أن ما جاء في التوراة - مثلا - من قصص أو أحكام ، ثم جاء القرآن

(٩) أصل الآية في سورة المائدة رقم ٨٩

(١٠) أصل الآية في سورة البقرة رقم ٢٢٦

(١١) أصل الآية في سورة النساء رقم ١٢

(١٢) أصل الآية في سورة البقرة رقم ١٩٨

بعد بحكيتها ، لا تكون قرآنا حين نزلت على موسى ولا حين دونت في ألواح التوراة . أما ما حكاه القرآن من ذلك بعد ، فهو قرآن من عند الله تعالى ، نزل به جبريل على قلب النبي محمد ﷺ ، ولا يخرج عن القرآنية أن يكون مضمونه موجودا في التوراة من قبل .

ونزيد ذلك ايضاحا فنقول :

ان القصة لها مضمون تناولته التوراة ، وتناوله القرآن ، والذي حكى القصة في الموضعين هو الله سبحانه . . . حكاه في التوراة بأسلوب خاص ، وأنزلها على موسى عليه السلام بلسان قومه فكانت من التوراة . وحكاه في القرآن بأسلوب خاص ، وأنزلها على محمد ﷺ بلسان قومه فكانت من القرآن .

والآيات القرآنية التي تضمنت أحكاما كانت شرعا لغيرنا وكانت مدونة في كتبهم المنزلة كقوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها<sup>(١٣)</sup> أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص . . . »<sup>(١٤)</sup> لا تخرج بذلك عن كونها قرآنا ، لأن الآيات التي من هذا القبيل نزلت على قلب النبي محمد ﷺ بلسان عربي ، ولا يقدر في قرآنيته كونها حكاية لما في التوراة أو غيرها من الكتب .

أما الأحكام التي تضمنتها هذه الآيات فالقول الفصل فيها ما يلي :

١ - ان اقترنت بما يفيد نسخها بالنسبة لنا فلا تكون شرعا لنا .  
٢ - وان اقترنت بما يفيد بقاء العمل بها في حقنا فهي شرع لنا ، ولا نكون في هذا متبعين لشرعية غيرنا ، بل نكون متبعين لشريعتنا التي جاء بها نبينا عليه الصلاة والسلام .

٣ - أما ان تجردت عن القرينة الدالة على شرعيتها أو عدم شرعيتها في حقنا ، فهذه محل خلاف بين الفقهاء .

ففرق يقول : هي شرع لنا .

وفرقيق آخر يقول : ليست شرعا لنا .

ولكل من الفريقين دليله الذي يستند اليه في توجيه مذهبه وتصويبه . وفي كتب أصول الفقه ما يعني طالب المزيد من المعرفة .

\* \* \*

(١٣) أي فرضنا على اليهود في التوراة هذا الحكم وهو الفصاص .

(١٤) المائة : ٤٥

## الغرض من إنزال القرآن الكريم

● الغرض من انزال القرآن الكريم أمران :

الأمر الأول : أن يكون معجزة لنبينا محمد ﷺ ، تشهد بصدق دعوته وحقية رسالته . . . وسنعرض قريبا لقضية الاعجاز من جوانبها المتعددة .  
الأمر الثاني : أن يكون دستوراً للأمة الإسلامية : تستمد منه الهداية والرشاد ، وتستلهم منه الصواب والسداد ، وتقبس من نور تشريعه ما يأخذ بيدها الى عز الدنيا وسعادة الآخرة .

وصدق الله العظيم اذ يقول : « ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم »<sup>(١)</sup> .

وصدق الرسول الكريم حين يصف القرآن فيقول :

« فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم »<sup>(٢)</sup>

صدق الله ورسوله : فلا عز إلا والقرآن سبيل اليه ، ولا خير إلا وفي آياته دليل عليه . ولقد عرف سلفنا الصالح هذا كله ، فتمسكوا بالقرآن فعزوا وسادوا ، . . . ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب . يأخذون عرض هذا الأدنى . ويقولون : سيغفر لنا ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالب فطبع على قلوبهم ، وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون !! . . .

وصدق الله العظيم : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى \* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى »<sup>(٣)</sup>

(١) الاسراء : ٩ . (٢) رواه الترمذى في كتاب السنن ج٢ ص ١٤٩ - ط : الأميرية

(٣) طه : ١٢٤ - ١٢٦

## جوانب الهداية والإرشاد في القرآن الكريم

● للقرآن الكريم في هدايته وإرشاده جوانب أربعة :

- ١ - جانب العقيدة .
  - ٢ - وجانب الشريعة .
  - ٣ - وجانب الأخلاق .
  - ٤ - وجانب الدعوة الى النظر في ملكوت السموات والأرض .
- ١ - أما جانب العقيدة : فقد وجهنا القرآن الكريم الى العقيدة الحقّة في الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء . دعانا الى معرفة الله - تعالى - وما له من صفات الكمال والجلال ، وأنه واحد لا شريك له في ملكه ، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ، وأنه الخالق المستحق للعبادة دون غيره . .

فقال في بيان ما لله من صفات الكمال والجلال :

« قل هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد ولم يولد \* ولم يكن له كفوا أحد »<sup>(١)</sup> .

وقال : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض . . . »<sup>(٢)</sup> .

وقال : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير \* الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور »<sup>(٣)</sup> .

وقال : « هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم \* هو الله الذي لا إله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون \* هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنی ، يسبح له ما في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . . »<sup>(٤)</sup> .

(٢) البقرة : ٢٥٥

(٤) الحشر : ٢٢ - ٢٤

(١) سورة الاخلاص

(٣) الملك : ١ ، ٢

وقال في بيان أن الله واحد لا شريك له في ملكه ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته :

« اننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى »<sup>(٥)</sup> .  
وقال : « ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه »<sup>(٦)</sup> .

وقال : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون »<sup>(٧)</sup> .

وقال : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »<sup>(٨)</sup> .  
وقال : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير »<sup>(٩)</sup> .  
وقال في بيان أنه المستحق للعبادة دون غيره :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب \* ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز »<sup>(١٠)</sup> .

وقال : « أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون \* ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون \* وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أَدَعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ \* إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوتهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين \* ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون »<sup>(١١)</sup> .

وقال : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ، ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين \* ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون \* وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين »<sup>(١٢)</sup> .

(٦) الأنعام : ١٠٢

(٨) المؤمنون : ٩١

(١٠) الحج : ٧٣ ، ٧٤

(١٢) الأحقاف : ٤ - ٦

(٥) طه : ١٤

(٧) الأنبياء : ٢٢

(٩) الشورى : ١١

(١١) الأعراف : ١٩١ - ١٩٥

وقال : « أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون » (١٣) .  
 ووجهنا القرآن الكريم الى الايمان بالملائكة والرسل وما أنزل الله من كتاب  
 فقال : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل  
 وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوق موسى وعيسى وما أوق النبيون من  
 ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (١٤) .  
 وقال : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على  
 رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله  
 واليوم الآخر فقد ضل ضللا بعيدا » (١٥) .  
 ويقرر القرآن الكريم عقيدة البعث والحساب والجزاء .  
 فيقول مقررا عقيدة البعث :

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى ورب لتبعثن ثم لتنبؤن بما  
 عملتم ، وذلك على الله يسير » (١٦) .  
 ويقول : « قل إن الأولين والآخرين \* لمجموعون إلى ميقات يوم  
 معلوم » (١٧) .

ويرد على المستبشرين للبعث لبني الانسان بعد ما تمزقت أوصالهم ورمّت  
 عظامهم وتلاشت ذراتهم حتى انهم ليقولون مستنكرين للبعث بعد هذا التمزق  
 والتلاشي :

« أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون \* أو آباؤنا الأولون » (١٨) .  
 « هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق  
 جديد » (١٩) .

« أنذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد » (٢٠) .  
 « أنذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد » (٢١) .  
 يرد القرآن على هؤلاء المنكرين للبعث والمستبشرين له بآيات كلها براهين  
 قاطعة ، وحجج دامغة فيقول :

(١٤) البقرة : ١٣٦  
 (١٦) التغابن : ٧  
 (١٨) الواقعة : ٤٧ ، ٤٨  
 (٢٠) سورة ق : ٣

(١٣) النحل : ١٧  
 (١٥) النساء : ١٣٦  
 (١٧) الواقعة : ٤٩ ، ٥٠  
 (١٩) سبأ : ٧  
 (٢١) السجدة : ١٠

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٢٢) .  
 « أفعمينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد » (٢٣) .  
 « كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا ، إنا كنا فاعلين » (٢٤) .  
 « يحسب الانسان أن نجمع عظامه \* بلى قادرين على أن نسوى  
 بنائه » (٢٥) .

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم \* قل  
 يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » (٢٦) .  
 ثم هو يقرر بعد ذلك : أن البعث لا بد أن يستتبع حسابا ، وأن الحساب  
 لا بد أن يستتبع ثوابا أو عقابا ، والا لكان الله عابثا بخلقه ، غير عادل فى  
 ملكه ، فيقول :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون \* فتعالى الله الملك  
 الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم » (٢٧) .

ويقول : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين  
 كفروا ، فويل للذين كفروا من النار \* أم نجعل الذين آمنوا وعملوا  
 الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (٢٨) .

ويقول : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين \* ما لكم كيف تحكمون » (٢٩) .  
 ويقول : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات  
 ولا المشيء ، قليلا ما تتذكرون » (٣٠) .

ويقول : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا  
 وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون » (٣١) .

\*\*\*

٢ - وأما جانب الشريعة : فقد سنّ لنا القرآن الكريم كثيرا من التشريعات  
 والنظم التى نحتاج إليها فى عبادتنا ، ومعاملاتنا ، وصلاتنا فى مجتمعنا  
 الإسلامى ، وعلاقاتنا بغيرنا من الدول فى السلم والحرب :  
 ففى العبادات : شرع الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . . وغير ذلك  
 من الطاعات والقرب التى يتقرب بها الانسان الى ربه ومولاه .

(٢٣) سورة ق : ١٥

(٢٥) القيامة : ٣ ، ٤

(٢٧) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦

(٢٩) القلم : ٣٥ ، ٣٦

(٣١) الجنات : ٢١

(٢٢) الروم : ٢٧

(٢٤) الأنبياء : ١٠٤

(٢٦) يس : ٧٨ ، ٧٩

(٢٨) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

(٣٠) غافر : ٥٨

وفي المعاملات : بين الحلال والحرام ، فأحلّ البيع وحرم الربا ، وحرم أكل أموال الناس بالباطل فقال : « وأحلّ الله البيع وحرم الربا » (٣٣) .  
وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٣٣) .

وقال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلّوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٣٤) .

وقال : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » (٣٥) .  
وقال : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » (٣٦) .

ووضع لنا القرآن الكريم أسس الاستيثاق فيما يجرى بيننا من معاملات مالية فقال في الدين :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » . . الى أن قال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » (٣٧) .

وقال في البيع : « وأشهدوا إذا تباعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد » (٣٨) .

وقال في الاستيثاق بالرهن : « وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة » (٣٩) .

وقال في الوصية : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم . . » (٤٠) .

وقال لأوصياء اليتامى : « . . . فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » (٤١) .

ووضع القرآن الكريم أحكام الزواج ، والطلاق ، وما يتعلق بهذا وذاك من مهر ، ونفقة ، وعدة ، وحضانة ، ورضاع . .

وأرسى القرآن قواعد الأمن والطمأنينة في المجتمع الاسلامي بما شرعه من

(٣٣) آل عمران : ١٣٠  
(٣٥) الانعام : ١٥٢  
(٣٧) البقرة : ٢٨٢  
(٣٩) البقرة : ٢٨٣  
(٤١) النساء : ٦

(٣٢) البقرة : ٢٧٥  
(٣٤) البقرة : ١٨٨  
(٣٦) النساء : ١٠  
(٣٨) البقرة : ٢٨٢  
(٤٠) المائدة : ١٠٦

الحدود والعقوبات على بعض الجرائم التي لا تخلو منها المجتمعات البشرية :  
فقرر عقوبة القصاص في القتل العمد بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر والعبد  
بالعبد والأنتى بالأنتى . . . » (٤٢) .

وقرر عقوبة القتل الخطأ بقوله :

« . . . ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن  
يصدّقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن  
كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ،  
فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليماً  
حكيماً » (٤٣) .

ووضع عقوبة لقطاع الطرق بقوله :

« إنما جزاء الذين يجربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن  
يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من  
الأرض . . . » (٤٤) .

ووضع عقوبة للسارق بقوله :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » (٤٥) .  
وشرع من العقوبات ما يصون حرمة الأعراض ويزجر عن استباحتها  
وانتهاكها ، فقال في عقوبة الزاني غير المحصن من الرجال والنساء :  
« الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة  
في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابها طائفة من  
المؤمنين » (٤٦) .

وقال في عقوبة قذف العفيفات بالزنا :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين  
جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون » (٤٧) .  
وفي محيط المجتمع الاسلامي يعمل القرآن الكريم على تقوية ما بين  
المسلمين من وحدة وترايط وازالة ما عساه يقع بينهم من عوامل التفكك

(٤٣) النساء : ٩٢

(٤٤) المائدة : ٣٨

(٤٥) النور : ٤

(٤٢) البقرة : ١٧٨

(٤٤) المائدة : ٣٣

(٤٦) النور : ٢

والتصدع ، فيشرع لهم من الأحكام ما يجتث جذور التنازع والتناحر فيما بينهم فيقول في جمع الكلمة ووحدة الصف :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (٤٨) .

ويقول في القضاء على الفتن والشقاق الذي يمزق هذه الوحدة :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين \* إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٤٩) .

وفي علاج المشاكل الأسرية يشرع القرآن كثيرا من الأحكام التي تزيل أسباب الخلاف وتجعل الحياة الأسرية تمشي في طريقها الصحيح الذي يجنبها العثرات والمكدرات ، وأبرز مثال نسوقه من هذه التشريعات الحكيمة قوله تعالى :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن ، فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا \* وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا » (٥٠) .

وفي علاقة المسلمين بغيرهم من الدول يضع القرآن الكريم قواعد المعاملة في السلم والحرب :

ففي السلم : يدعو إلى مسالمة من يسألنا بقوله :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٥١) .

وقوله : « ... فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » (٥٢) .

وفي الحرب : يدعو إلى محاربة من يحاربنا بقوله :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » (٥٣) .

(٤٩) الحجرات : ٩ ، ١٠

(٥١) الأنفال : ٦١

(٥٣) البقرة : ١٩٠

(٤٨) آل عمران : ١٠٣

(٥٠) النساء : ٣٤ ، ٣٥

(٥٢) النساء : ٩٠

ودعانا الى الاعداد للحرب ما دامت متوقعة بقوله :  
 « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله  
 وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (٥٤) .  
 وحرصنا على الثبات عند لقاء الأعداء بقوله :  
 « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا اذكروا الله كثيرا لعلكم  
 تفلحون » (٥٥) .

وحرصنا على البلاء في القتال بقوله :  
 « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » (٥٦) .  
 وقوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم  
 فشدوا الوثاق » (٥٧) .

وقوله : « فإذا تشققتهم في الحرب فشردهم من خلفهم » (٥٨) .  
 ونهانا عن التولى يوم الزحف بقوله :  
 « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار \*  
 ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من  
 الله ومأواه جهنم ، وبئس المصير » (٥٩) .  
 ونهانا عن الخور والوهن في طلب الأعداء بقوله :  
 « ولا تمهوا في ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ،  
 وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » (٦٠) .  
 والقرآن يعطى الكافر المستأمن حق الأمان غير مروع على نفسه أو ماله  
 فيقول :  
 « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه  
 مأمنه » (٦١) .

ويقرر القرآن مصير أسرى الحرب بقوله :  
 « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا  
 الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » (٦٢) .

(٥٥) الأنفال : ٤٥

(٥٧) محمد : ٤

(٥٩) الأنفال : ١٥ ، ١٦

(٦١) التوبة : ٦

(٥٤) الأنفال : ٦٠

(٥٦) الأنفال : ١٢

(٥٨) الأنفال : ٥٧

(٦٠) النساء : ١٠٤

(٦٢) محمد : ٤

ويضع القرآن أسس المعاهدات ويحتم وجوب الوفاء بها والوقوف عند بنودها ما دام العدو محافظاً على ذلك من جانبه ولم يبد من الظروف ما يقتضى نقضها فيقول : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم » (٦٣).

ويقول : « . . . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين » (٦٤).

ويقول : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » (٦٥).

\*\*\*

### ● منهج القرآن في بيان الأحكام :

وللقرآن الكريم في بيان الأحكام منهج فريد اقتضته ضرورة كونه عالمياً خالداً ، ويتلخص هذا المنهج في النقاط الآتية :

- ١ - أن بعض أحكامه جاء بصيغة قاطعة في الدلالة على الحكم ، فلم يكن محل اجتهاد ولا خلاف بين الفقهاء وهذا - عادة - يكون في أصول الأحكام : كوجوب الصلاة والزكاة . وحرمة القتل والزنا . وهذه الأحكام يجب اعتقادها ويلزم العمل بها ، ومن جحدتها كان بجحودها خارجاً عن الاسلام .
- ٢ - أن بعضاً آخر من أحكامه جاء بصيغة غير قاطعة في الدلالة على الحكم ، لاحتمالنا أكثر من وجه ، فكانت محلاً لاجتهاد المجتهدين ، ونتج عن ذلك اختلافهم في الرأي ، وذلك يكون - عادة - في فروع الأحكام : كمقدار ما يجب مسح من الرأس في الوضوء ، وعدد الرضعات التي يتحقق بها كون المرضع أمّاً من الرضاع . وهذه الأحكام الاجتهادية التي قال بها الفقهاء لا يجب اعتقاد واحد منها بعينه ، كما لا يجب العمل به إلا على المجتهد الذي توصل اليه باجتهاده ، أما المقلد فله أن يختار من بين آراء المجتهدين ما شاء .
- ٣ - أن القرآن لم يتناول كل الأحكام التي يحتاجها الانسان في حياته جملة وتفصيلاً ، لأنه ليس من المعقول ولا من الحكمة أن ينص القرآن على أحكام كل ما يعرض للناس من أقضية في ماضيهم ، وحاضرهم ، ومستقبل حياتهم الممتدة إلى يوم القيامة .

(٦٣) النحل : ٩١

(٦٥) الأنفال : ٥٨

(٦٤) التوبة : ٤

أما أنه ليس من المعقول : فذلك أمر بدهى ، إذ لا يتصور عقل أن يتسع كتاب لهذا كله .

وأما أنه ليس من الحكمة : فذلك لأن الحكمة تقضى أن تكون الشريعة التي جعلها الله خاتمة الشرائع وجعلها للناس كافة ، شريعة يكون فيها جانب المرونة محققا حتى تتسع لأنماط من الحكم مختلفة ، يقتضيها اختلاف طبائع المكلفين وما يحيط بهم من ملابسات وظروف على مدى تاريخ الاسلام الطويل .

وحسب القرآن الكريم في تشريعه أن يقرر الأصول العامة ، ويتناول بعض الجزئيات الهامة ويقرن كل هذا بعلة التشريع وما يهدف اليه من مصلحة ، ثم يترك للمجتهدين بعد ذلك أن يستنتجوا من الأحكام ما يلائمهم بشرط ألا يخرج عن نطاق ما قرره من الأصول العامة وما نبه اليه من علة التشريع التي هي مناط الحكم .

٤ - أن القرآن لم يلتزم وحدة الموضوع في بيان أحكامه ، لأنه ليس كتاب قانون يبوب لكل موضوع بابا ثم يسرد كل مسائله ، وانما هو كتاب هداية وارشاد : يسوق الآيات تلو الآيات في جانب من جوانب الموعظة ، ويتوخى المناسبة الملائمة فيسوق في ثانيا موعظته حكما شرعيا ، ويضفى عليه جوا من الترغيب أو التهيب يوحى بوجود الأخذ به ويحذر من مخالفته .

وفي جانب آخر من جوانب الموعظة يلقي بحكم آخر يضيف عليه من جو الترغيب أو التهيب ما يحتم الأخذ به ويحذر من مخالفته .

..... وهكذا يلقي القرآن بأحكامه كلها في أجواء مختلفة من الوعظ والهداية والإرشاد ، وفي كل مرة يحس السامع بأنه يسمع شيئا جديدا ، فينبئ عليه بشوق ولهفة دون أن يحس بسامة أو ملل .

ثم ان القرآن الكريم نزل مفرقا ، وأحكامه نزلت مفرقة على حسب الحوادث وأسئلة السائلين وحاجات الناس ، ومن الأحكام ما هو منسوخ بأحكام أخرى ، فلو جمعت كل الأحكام : ناسخها ومنسوخها في مكان واحد وتحت عنوان واحد ، لظهر القرآن بمظهر المتناقض في بعض أحكامه . أما أن توضع آية متضمنة حكما في موضع ما ولمناسبة ما ، ثم توضع آية أخرى ناسخة لها في موضع آخر ولمناسبة أخرى ويعرف بطريق ما أن هذه ناسخة وتلك منسوخة ، فذلك يوحى بتدرج التشريع ، ويعطى القارىء المتأمل فكرة واضحة عن مراحل من غير أن يستشعر تناقضا بين أحكامه .

بقي سؤال يثار حول التشريع القرآني وهو :

● هل كل ما في القرآن من تشريع يعدّ جديداً مبتكراً؟

وللجواب عن هذا السؤال نقول :

ان القرآن الكريم نزل للناس جميعاً ، ونزوله - كما قلنا - كان لغرض الاعجاز أولاً ، ثم ليكون مصدر هداية وارشاد بما احتواه من تشريع وتوجيهات مختلفة .

ويذهي أن أي تشريع يراد له أن يكون صالحاً لتنظيم حياة أمة وعلاج مشاكلها في حاضرها ومستقبل أمرها ، لا بد أن تتوفر فيه عناصر أربعة :

١ - أن يكون ملائماً للفطرة البشرية ملائمة تامة حتى لا يصادمها ولا يعاندها في أمر جبلت عليه ، ومن هنا حرم نكاح الأمهات والبنات في كل الشرائع المعتمدة تحريماً باتاً ، ولو عرف أن تشريعاً أباح ذلك لعدّ شذوذاً وخروجاً عن الانسانية الى الحيوانية .

٢ - أن يكون ملائماً للقدرة الانسانية غير خارج عن طاقتها ، والا كان نعنتا وتعجزنا ينافي مفهوم التكليف الذي يهدف الى الامتثال والطاعة ، ومن هنا شرع التيسير في كثير من الأحكام عند تحقق المشقة أو مظنتها ، كإباحة الفطر في السفر ، والصلاة قاعدا لمن عجز عن أدائها من قيام .

٣ - أن يكون ملائماً للسنن الاجتماعية فلا ينافرها ولا يعطلها ، والا كان ذلك خروجاً عما تقتضيه طبيعة الجماعات في ترابطها وتعاونها وتكاملها ، ومن هنا شرعت قوانين الولاء لولي الأمر ، وقوامة الزوج على زوجته ، وولاية الوالد على ولده القاصر .

٤ - أن يكون مراعياً للعرف وما اصطلح عليه الناس في معاملاتهم ، ما لم يؤد ذلك الى مفسدة لفساده في ذاته أو فساد ما يترتب عليه ، ومن هنا حرّم التبني ، وحرّم الجمع بين الأختين في الزواج ، وكلاهما كان متعارفاً بين العرب قبل الاسلام ، فجاء الاسلام وحرّم الأول لفساده في ذاته ، لأن الدعوى لا يكون ابناً ، وحرّم الثاني لفساد ما يترتب عليه من قطيعة الرحم التي تنشأ - عادة - بين الأختين ان كانتا تحت زوج واحد .

والقرآن الكريم راعي كل هذه العناصر المتقدمة في تشريعه ، ونظر اليها جميعاً بعين الاعتبار فيما تضمنه من أحكام كلية كانت أم جزئية ، وعلى هذا الأساس جاء تشريع القرآن الكريم على نمط يتمشى مع عمومته وعالميته . . نمط يأخذ من كل دين وعرف ما يلائم طبيعة الانسان ويدخل في نطاق قدرته ،

ويساير تطوره الاجتماعي ، وما لا يلائم طبيعته ولا يدخل في نطاق قدرته ، ولا يساير تطوره الاجتماعي يبطله ولا يقره ، ثم هو بعد ذلك يشرع ما يراه متمشيا مع هذا كله .

وليس من شك في أن القرآن الكريم جاء وهناك تشريعات قائمة ، بعضها منبثق عن شرائع سماوية ، وبعضها الآخر منبثق عن أعراف خاصة للجماعات مختلفة .

وليس من شك - أيضا - في أن القرآن الكريم وقف من كل هذه التشريعات موقف الناقد البصير : يقّر منها ما يراه صالحا ، ويعدل منها ما يحتاج الى تعديل ، ويبطل منها ما يراه غير صالح ، ويشرع أحكاما أخرى لم تكن معروفة من قبل ، وهو في كل هذا مشرع مستقل بنفسه ، وليس عالة على غيره من التشريعات أو الأعراف والعادات ، لأنه حين أقرّ ما أقرّ منها لم يقره على أنه مقلد لا رأى له ، وإنما أقره لأنه جرى ويجرى على مقتضى الطبيعة الانسانية والسنن الاجتماعية ، وما كان لمشروع أبدا أن يجيد عما تقتضيه طبيعة الانسان وسنن الاجتماع والا لكان أحق لا يعرف الحكمة ولا يدرك المصلحة .

\*\*\*

● وخلاصة المقال :

- ١ - أن ما في القرآن من تشريع ليس كله جديدا مبتكرا .
  - ٢ - وأن موقف التشريع القرآني من الشرائع السابقة كان على النحو التالي :
    - (أ) أنه أقر بعض الأحكام وأبقاها معمولا بها في الشريعة الاسلامية للملاءمتها وصلاحتها كالقصاص والديات في القتل وغيره من الجنايات على النفس .
    - (ب) أنه هذب وعدل بعضا آخر منها كالظهار الذي كان معروفا عند العرب : يقول الرجل لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي ، فتصبح في عرفهم محرمة عليه أبدا ، فجاء القرآن وهم على ذلك ، فعدل حكم الظهار ، فمن ظاهر من زوجته لا يعتبره القرآن مطلقاً ولا محرماً لها على التأيد ، بل اعتبره عابثا بالحياة الزوجية ، وجزأه على ذلك : أنه لا يحل له قربانها والاستمتاع بها حتى يكفر عن خطيئته بعقوبة رقية ، فان لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فان لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، وفي ذلك يقول الله تعالى معاتباً ومعاقباً :
- « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور \* والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقية من

قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير \* فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا . ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم» (٦٦).

(ج) أنه ألغى بعضاً ثالثاً منها : كالتبني الذي كان معروفاً في الجاهلية وصدر الاسلام :

كان الرجل يتبنى ولد غيره وهو يعرف ذلك فينسبه الى نفسه وتجرى عليه أحكام الابن الصلبي : من التوارث بينها ، وعدم جواز نكاح أحدهما زوجة الآخر اذا طلقها أو مات عنها ، فجاء القرآن فأبطل التبني وما كان يترتب عليه .

فقال في بيان انتساب الأدياء المتبينين :

« . . . وما جعل أدياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل \* ادعوهم لأبائهم هو أفسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم» (٦٧) .  
وقال في ابطال التوارث بالتبني :

« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً» (٦٨) .  
وقال في اباحة زواج المتبنى بزوجة من تبناه بعد فراقه لها :

« فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولاً» (٦٩) . . . يريد زينب بنت جحش وكان قد تزوجها زيد بن حارثة ثم طلقها ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تبني زيدا حتى كان يدعى زيد بن محمد ، فأمره الله بزواجها من بعده فكان ذلك هدماً لعرف جرى عليه العرب في الجاهلية .

(د) وقد يقر القرآن بعض ما كان شائعاً من أحكام لنوع من المصلحة فيه ، ولكنه يحيط هذا الحكم الذي أقره بكثير من الضمانات حتى لا ينحرف به أحد عن حكمة التشريع .

ثم هو لا يكتفى بهذه الضمانات ، فينشئ من التشريعات ما يكاد يلغى هذا

(٦٦) المحادثة : ٢ - ٤

(٦٧) الأحزاب : ٤ ، ٥

(٦٨) الأحزاب : ٦

(٦٩) الأحزاب : ٣٧

الحكم أو يوحى بعدم الرغبة فيه ، وذلك كالرق فقد كان شائعا بين العرب فجاء القرآن وأقر الاسترقاق في الحرب لا على أنه إهدار لأدمية المسترق وحطم لمعانى الانسانية فيه ، وإنما أعطاه كل حقوقه كإنسان ، واعتبر الاسترقاق إدخالا له في مدرسة الاسلام ، لعل قلبه يتفتح على ما فيه من الحق والهدى فينضوى تحت لوائه ، وفتح له مع ذلك أبوابا كثيرة يخرج منها الى الحرية التامة :

فمن ذلك : أنه جعل تحرير الرقاب المستركة من أفضل القرب وأحبها الى الله .

ومن تخلى عن أنانيته وطوّعت له نفسه عتق عبده عن سماحة نفس فقد تخطى العقبة وسلك طريقه الى الجنة . (٧٠)

ومن كان مسترقا يسعى للحصول على حريته ، فله في مال الزكاة نصيب يأخذه ليشتري به حريته من سيده ان كان قد شح عليه بها .  
ومن حلف يمينا ثم حنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة . (٧١) ومن قتل مؤمنا خطأ فكفارته تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله . (٧٢) .

ومن ظاهر من زوجته ثم أراد أن يعود لها فكفارته عتق رقبة (٧٣) .  
ومن أفطر متعمدا في نهار رمضان فكفارته عتق رقبة أيضا (٧٤) .  
ومن لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه . (٧٥)  
ومن يتأمل الآيات القرآنية التي وردت في الكفارات يخرج بحقيقتين هامتين :

الحقيقة الأولى : أن العتق هو الأصل في الكفارة ، وأنه لا تخيير بين العتق وغيره من المكفرات إلا في كفارة اليمين .

الحقيقة الثانية : أن العتق لا يعدل عنه الى البديل وهو الصوم إلا اذا لم يجد المكفر رقبة يعتقها .

معنى هذا : أن الاسلام يتشوف الى الحرية ويراهما أحب الى الله وأرضى من الصوم وغيره من العبادات والقرب .

(٧٠) انظر الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٣ من سورة البلد (٧١) انظر الآية ٨٩ من سورة المائدة .

(٧٢) انظر الآية ٩٢ من سورة النساء (٧٣) انظر الآية ٣ من سورة المجادلة .

(٧٤) على خلاف بين الفقهاء في ذلك

(٧٥) هذا نص حديث رواه الامام أحمد والامام مسلم وغيرهما وفي معناه عدة أحاديث مروية في الصحيح .

ثم إن الإسلام يملك الرقيق نفسه ويعطيه حريته لأدنى مناسبة ، فإذا ما لاح للمسترق شعاع أمل في الحرية من خلال نافذة ضيقة ، فتح الله له الباب على مصراعيه لينطلق منه الى الحرية الكاملة ، كالأمة يستولدها سيدها فلا يحل له أن يخرجها عن ملكه ببيع أو هبة أو نحوهما ، فإذا مات فهي حرة .  
والعبد يكون بين شريكين فيعتق أحدهما نصيبه فيعتق العبد كله ، ويضمن المعتق الأول نصيب شريكه ان كان له مال ، فان لم يكن له مال قوم نصيب من لم يعتق وسعى العبد في تحصيله له من غير عنت ولا مشقة .  
... وهكذا يقر الإسلام أمرا كان شائعا بين الناس ، ولكنه يحيطه بكل الضمانات التي تجعله لا يخرج عن نطاق الحكمة والمصلحة . . ثم هو بعد يلغيه بضروب من الجزاءات والعبادات والقرب الى الله .

\*\*\*

٣- وأما جانب الأخلاق : فقد وجهنا القرآن الكريم الى نواح أخلاقية متعددة ، ودعانا الى الأخذ بها حتى نسعد في حياتنا الدنيا وفي الآخرة ، وهدرنا بأساليب شتى من الخروج عنها حتى لا نضل ولا نشقى ، ونبهدنا الى الأسوة الحسنة والقنوة الطيبة . . نبهدنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما هو عليه من حسن الخلق وكريم الخصال حتى نفتدى به فقال متنيا عليه : « وإنك لعلى خلق عظيم »<sup>(٧٦)</sup> .

وبين سر التفاف المسلمين من حوله واجتماع قلوبهم على محبته فقال :  
« ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »<sup>(٧٧)</sup> .

وإذا نحن تبهدنا القرآن الكريم وتقدسينا ما فيه من توجيهات أخلاقية خرجنا بعدد من الآيات التي تحوى جماع الفضائل كلها ، والتي لو تمسك بها المسلم لكان في القمة : من سمو الروح ، وصفاء النفس ، وحسن السريرة ، وطيب المعشر ، والتي لو ساد في مجتمع لكان مجتمعاً مثالياً فاضلاً ، يقوم على الخير ، والحب ، والمودة ، والرحمة ، والطهر ، والنقاء . .  
ولا نريد أن نستعرض كل ما في القرآن الكريم من الآيات الأخلاقية الموجهة ، فذلك أمر يطول . . ولكن نكتفى ببعضها :

ففى الدعوة الى الاحسان فى معاملة الأقربى وغيرهم يقول :  
« وابدؤوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين احساناً وبذى القربى

واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا» (٧٨) .  
ويقول : «وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض» (٧٩) .

وفى مقابلة السيئة بالحسنة يقول :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٨٠) .

وفى العفو عن المسيء يقول :

« .. فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٨١) .

ويقول لنبىه محمد ﷺ : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » - يعنى اليهود -  
« إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح ، إن الله يحب المحسنين » (٨٢) .

ويقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين \* الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (٨٣) .

وفى الحث على الصدق يقول :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (٨٤) .

وفى النجوى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون » (٨٥) .

ويقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » (٨٦) .

وفى الحث على الأمانة يقول :

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » (٨٧) .

ويعمد المؤمنين الأمانة ويسجل لهم الفوز والفلاح بقوله :

(٧٩) القصص : ٧٧

(٨١) الشورى : ٤٠

(٨٣) آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤

(٨٥) المجادلة : ٩

(٨٧) النساء : ٥٨

(٧٨) النساء : ٣٦

(٨٠) فصلت : ٣٤

(٨٢) المائدة : ١٣

(٨٤) التوبة : ١١٩

(٨٦) النساء : ١١٤

« قد أفلح المؤمنون \* الذين هم في صلاتهم خاشعون » . . . الى أن يقول :  
« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم على صلواتهم  
يحافظون \* أولئك هم الوارثون \* الذين يرثون الفردوس هم فيها  
خالدون » (٨٨) .

ويحذر من الخيانة فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم  
تعلمون » (٨٩) .

ويقول : « إن الله لا يحب من كان خَوَّانًا أَثِيمًا » (٩٠) .

وفي الحث على العدل يقول :

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . » (٩١) .

ويحذر من أن تكون القرابة أو العداوة سببا لعدم العدل في القول أو الحكم  
فيقول : « وإذا قُلتُم فاعدِلوا ولو كان ذا قُربى » (٩٢) .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على  
أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا  
تبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون  
خبيرا » (٩٣) .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا  
يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ،  
إن الله خبير بما تعملون » (٩٤) .

ويدعو الى التواضع وعدم التكبر والتعالى على الغير فيقول :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون  
قالوا سلاما » . . . الى أن يقول : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون  
فيها تحية وسلاما » (٩٥) .

ويقول : « ولا تمش في الأرض مرحا ، إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ  
الجبال طولا » (٩٦) .

ويقول : « ولا تُصعِّرْ خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله

(٨٩) الأنفال : ٢٧

(٩٠) النحل : ٩٠

(٩٣) النساء : ١٣٥

(٩٦) الاسراء : ٣٧

(٨٨) المؤمنون : ١ - ١١

(٩٠) النساء : ١٠٧

(٩٢) الأنعام : ١٥٢

(٩٤) المائدة : ٨

(٩٥) الفرقان : ٦٣ - ٧٥

لا يجب كل مختال فخور \* واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» (٩٧) .

وينهى عن السخرية واللمز والتنايز بالألقاب فيقول :  
« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنايزوا بالألقاب ، بنس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (٩٨) .

وينهى عن ظن السوء ، والتجسس ، والغيبة فيقول :  
« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » (٩٩) .  
ويحذر من اشاعة الفاحشة في المؤمنين فيقول :  
« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » (١٠٠) .

ويرشدنا الى حرمة البيوت وأدائها فيقول :  
« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون \* فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أذكى لكم ، والله بما تعملون عليم \* ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم بما تبدون وما تكتُمون » (١٠١) .  
ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك بين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم \* وإذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك بين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم » (١٠٢) .

(٩٨) الحجرات : ١١

(١٠٠) النور : ١٩

(١٠٢) النور : ٥٨ ، ٥٩

(٩٧) لقمان : ١٨ ، ١٩

(٩٩) الحجرات : ١٢

(١٠١) النور : ٢٧ - ٢٩

ويدعو الرجال الى غض أبصارهم وحفظ فروجهم عما حرم الله فيقول :  
« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ،  
إن الله خبير بما يصنعون » (١٠٣) .

ويدعو النساء الى غض أبصارهن وحفظ فروجهن وعدم ابداء زينتهن  
للأجانب حتى لا يكنّ مثار فتنة فيقول :

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین  
زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهنّ علی جباهنّ ، ولا یبدین  
زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو  
إخوانهن أو بنی إخوانهن أو بنی أخواتهن أو نسائهن أو ما ملکت أیمانهن أو  
التابعین غیر أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذین لم یظهروا علی عورات  
النساء ، ولا یضربن بأرجلهن لیعلم ما یخفین من زینتهن ، وتوبوا إلى الله  
جميعا أيها المؤمنون لعلکم تفلحون » (١٠٤) .

ويقول : « يا أيها النبی قل لأزواجک وبناتک ونساء المؤمنین یدنین علیهن  
من جلابیبهن ، ذلك أدنی أن یعرفن فلا یؤذین ، وكان الله غفورا  
رحیما » (١٠٥) .

ويقول : « يا نساء النبی لستنّ كأحد من النساء ، إن اتقیتن فلا تخضعن  
بالقول فیطمع الذی فی قلبه مرض وقلن قولا معروفا \* وقرن فی بیوتکن ولا  
تبرجن تبرج الجاهلیة الأولى ، وأقمن الصلاة وآتین الزکاة وأطعن الله  
ورسوله ، إنما یرید الله لیذهب عنکم الرجس أهل البیت ویطهرکم  
تطهیرا » (١٠٦) . . . وغير أمهات المؤمنین بذلك أولى .

ويقول فی أدب الضیف :

« يا أيها الذین آمنوا لا تدخلوا بیوت النبی إلا أن یؤذن لکم إلى طعام غیر  
ناظرین إناہ ولكن إذا دعیتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسین  
لحدیث ، إن ذلكم كان یؤذی النبی فیستحی منکم ، والله لا یستحی من  
الحق » (١٠٧) .

\*\*\*

(١٠٣) النور : ٣٠

(١٠٥) الأحزاب : ٥٩

(١٠٧) الأحزاب : ٥٣

(١٠٤) النور : ٣١

(١٠٦) الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣

٤ - وأما جانب الدعوة الى النظر في ملكوت السموات والأرض : فقد وجهنا القرآن الكريم الى ما بثه الله في الكون من آثار قدرته ودلائل ألوهيته فقال : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (١٠٨) .

وقال : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » (١٠٩) .

وقال : « وفي الأرض آيات للموقنين \* وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » (١١٠) .

وقال : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت \* وإلى السماء كيف رفعت \* وإلى الجبال كيف نصبت \* وإلى الأرض كيف سطحت » (١١١) .

وقال : « تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا \* وهو الذي جعل الليل والنهار خلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا » (١١٢) .

وقال : « ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا \* ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا \* وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا \* وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا \* لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا \* ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » (١١٣) .

وقال : « ألم تر أن الله يزعج سبحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار \* يقليب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار \* والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى

(١٠٩) الروم : ٢٢

(١١١) العنكبوت : ١٧ - ٢٠

(١١٣) الفرقان : ٤٥ - ٥٠

(١٠٨) البقرة : ١٦٤

(١١٠) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

(١١٢) الفرقان : ٦٦ ، ٦٢

على أربع . يخلق الله ما يشاء . إن الله على كل شيء قدير» (١١٤) .  
 وقال : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام \* إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور» (١١٥) .  
 وقال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون \* والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون» (١١٦) .  
 وقال : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء» (١١٧) .  
 وقال : « وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون» (١١٨) .  
 . . . . . وأخيرا يشير القرآن الكريم الى آيات أخرى لا يزال يكشف عنها العلم كانت وستكون الحجة البالغة لله على الناس فيقول :  
 « سترهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (١١٩) .

\*\*\*

#### ● هدف القرآن من توجيهنا إلى آثار قدرة الله :

والقرآن اذ يوجهنا الى هذه الآثار ويلفت أنظارنا اليها ، لا يريد منا أن ننظر اليها نظرة عابرة قاصرة ، وانما يريد منا النظرة الفاحصة المتأملة ، وهو يهدف من وراء ذلك الى أمرين هاميين :  
 أولهما : أن نأخذ منها الدليل على وجود الله وقدرته ، وعلى أنه الاله الحق الذي يستحق العبادة دون غيره .  
 وثانيهما : أن ننقب عما حواه الكون من خيرات وكنوز ، وأن نكشف أسراره وكوامنه حتى ننتفع بكل ما فيه من خيرات مادية ، ونستفيد بكل ما نهتدى اليه من معارف وعلوم بعد الدراسة لظواهره ومشاهده دراسة البارع المدقق والعالم المحقق .  
 ولقد أدرك العلماء من غير المسلمين ما في الكون من مصادر الثروة ، وموارد

(١١٥) الشورى : ٣٢ ، ٣٣

(١١٧) الأعراف : ١٨٥

(١١٩) فصلت : ٥٣

(١١٤) النور : ٤٣ - ٤٥

(١١٦) يس : ٣٧ - ٤٠

(١١٨) يوسف : ١٠٥

القوة ، وينابيع المعرفة ، فأخذوا جادين في استنباط كنوز الأرض واستغلال خيراتها ، وبحثوا محققين عن خواص بعض ظواهر الكون وعوالمه ، فاذا بهم بعد الجهد والعرق يصلون الى ما كانوا يرجون ، ويحققون لأهمهم غنى لا يظاول ، ومجدا لا يسامى ، وقوة لا تقهر .

وغفل المسلمون عن آيات الله البيّنات ، وأغمضوا عيونهم وعقولهم عن التأمل والتدبر فيما تحويه من ذخائر وتوحى به من معارف ، فكان حالهم ما نرى .. تخلف عن ركب الحضارة ، وتسول في موكب العلم !! ...

\* \* \*

### ● القرآن يخاطب العقل والوجدان والعاطفة :

والقرآن الكريم حين يدعو إلى العقيدة الحقّة في الله وفي كل ما جاء عنه ، وحين يدعو إلى التزام تشريع معين في عبادتنا أو معاملاتنا أو نظمنا الاجتماعية ، وحين يدعو إلى الخلق الكريم والأدب الحميد واتخاذ ذلك منهجا لنا في سلوكنا الشخصى وسلوكنا مع الله ومع الناس . حين يدعو القرآن إلى هذا كله ، لا يدعو إليه دعوة جافة خشنة ليس فيها إلا مجرد الأمر الصارم أو النهى العنيف ، وإنما يدعو إليه دعوة الحكمة العاقلة ، فيورده بأسلوب الأمر أو النهى مقرونا بوسائل الاقتناع بصدقه ، وصلاحيته ، وحسن عاقبته .  
ووسائل الاقتناع متعددة :

فتارة يكون الاقتناع عن طريق العقل ، وتارة يكون عن طريق الوجدان ، وتارة ثالثة يكون عن طريق العاطفة .

ولقد سلك القرآن الكريم في دعوته هذه الطرق الثلاثة :  
خاطب العقل : لأن من الناس من لا يؤمن إلا بالدليل العقلى ، ومن ذلك قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » (١٢٠) .

وقوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » (١٢١) .  
وكلتا الآيتين دليل منطقى واضح يدركه من له إمام بأساليب المناطقة في استدلالهم ويدركه كل من له عقل يعى ولو لم يكن على علم بأسلوب المناطقة .

ثم هناك آيات الله في السموات والأرض وفي أنفسنا ، وكلها براهين عقلية تشهد بوجود الله وربوبيته ، والقرآن الكريم - في أكثر من آية - يلفت أنظارنا إلى هذه الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة لله على الناس .  
وخاطب القرآن الوجدان : لأن من الناس من لا يحفزهم الى الانقياد والطاعة إلا ما يحرك وجدانه . ويشير فيه جانب الرغبة أو الرهبة ، فإذا ما أمر بمعروف وقرن الأمر بالترغيب رغبت نفسه في الامتثال أملا في الثواب ، وإذا ما نهى عن منكر وقرن النهى بالترهيب كف نفسه عنه رهبة من الوقوع تحت طائلة العقاب .

وكثيرا ما نجد في القرآن الكريم آيات تحرك في الوجدان نوازع الخير بما تضمنته من وعد بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وآيات أخرى تنيم في الوجدان نوازع الشر بما تضمنته من وعيد بشقاء الدنيا وعذاب الآخرة .

فمن الآيات التي تحرك في الوجدان نوازع الخير وتبعث على امتثال الأوامر الإلهية : قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » (١٢٢) .

وقوله : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١٢٣) .

وقوله : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم » (١٢٤) .

ومن الآيات التي تنيم في الوجدان نوازع الشر وتبعث في النفس الخوف من الوقوع فيما نهى الله عنه :

قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١٢٥) .

وقوله : « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها

(١٢٣) النحل : ٩٧

(١٢٥) النحل : ١١٢

(١٢٢) النور : ٥٥

(١٢٤) النساء : ١٣

أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون \* ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون» (١٢٦).

وخاطب القرآن العاطفة : لأن من الناس من لا يستجيب لدعوة الخير إلا إذا خوطب بما يهز عاطفته ويوقظ في نفسه كوامن الحب والشفقة والرحمة . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى عمل البر والخير ، وأخرى تنهى عن ارتكاب بغض ما لا يليق بالإنسان ، وهذه وتلك تأتي مقرونة بما ينبه العواطف الانسانية ويثيرها حتى تكون المحرك الدافع لفعل الخيرات والمبرات ، والمثبط المعوق عن ارتكاب الحماقات والموبقات .

فمن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف الدافعة إلى فعل الخيرات والمبرات : قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً \* واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » (١٢٧) .

وقوله : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » (١٢٨) . ومن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف المعوقة عن ارتكاب الحماقات والموبقات :

قوله تعالى : « ... ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيجب أحداكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » (١٢٩) .

وقوله : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاً وإثماً مبيناً \* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » (١٣٠) .

وقوله : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » (١٣١) .

وقوله : « ولا تلمزوا أنفسكم » (١٣٢) .

وقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » (١٣٣) .

(١٢٧) (الاسراء : ٢٣ ، ٢٤)

(١٢٩) (الحجرات : ١٢)

(١٣١) (النساء : ٩)

(١٣٣) (النساء : ٢٩)

(١٢٦) (السجدة : ٢٠ ، ٢١)

(١٢٨) (الحجرات : ١٠)

(١٣٠) (النساء : ٢٠ ، ٢١)

(١٣٢) (الحجرات : ١١)

يريد : أن المؤمن وأخاه كنفس واحدة فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه ، ومن قتل أخاه فكأنما قتل نفسه .

..... وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل والوجدان والعاطفة حتى يصل الى القلوب بتعاليمه ومفاهيمه من كل هذه النواقد ، وتلك رحمة من الله بعباده الذين شرحوا صدورهم للقرآن ولم يوصدوا دونه هذه المنافذ ويضعوا عليها أقفالا من المكابرة والعناد .

\* \* \*

## إعجاز القرآن الكريم

● معنى الإعجاز :

تطلق كلمة الإعجاز في اللغة ويراد بها اثبات العجز وإظهاره .  
وإعجاز القرآن الكريم معناه : إثبات عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله ،  
فيظهر بذلك صدق النبي ﷺ في دعواه الرسالة ، وأن القرآن ليس من كلامه ،  
ولا هو في مقدور أحد ، وإنما هو كلام الله عز وجل .

\*\*\*

● القرآن معجزة النبي الكبرى :

والقرآن معجزة النبي الكبرى ، وهو يتميز عن سائر معجزات الأنبياء  
بأمور :

١ - أنه يحتوى على أصول الدعوة المحمدية وما يكتنفها من هداية وإرشاد ،  
وذلك أبلغ في الدلالة على النبوة ، لأن ما احتواه من ذلك لا يمكن أن يكتسب  
بالتعلم وإنما هو بوحى من الله ، ومن هنا كان القرآن كافياً ومغنياً عن كل ما  
طلبه المتعنتون من معجزات تجدياً له عليه الصلاة والسلام ، وفي ذلك يقول  
الله تعالى : « أو لم يكةفهم أنا أنزنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (١) .

٢ - أن القرآن معجزة العقل ، لأنه يخاطب العقل دائماً ولا يحمد عند الحسن  
كمعجزات الأنبياء السابقين ، ولقد نوه رسول الله - ﷺ - بذلك في حديث له  
فقال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه  
البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا  
يوم القيامة . » (٢) .

٣ - أن القرآن الكريم معجزة خالدة باقية على مدى الدهر ضرورة أنه معجزة  
الدين الخالد ، فهو شاهد أبدياً بصدق محمد ﷺ ، أما معجزات الأنبياء  
السابقين ، فقد كانت تنتهي بانتهاء وقت وقوعها ثم لا يبقى لها أثر بعد ذلك  
إلا في نفس من شهدها .

\*\*\*

(٢) رواه أحمد وغيره عن أبي هريرة

(١) العنكبوت : ٥١

● القرآن بين تكذيب العرب له وتحديدهم به :

ولقد آيد الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً - ﷺ - بمعجزة القرآن من أول يوم بعثه رسولاً للعالمين ، ولكن قومه كذبوه ، وزعموا أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس من عند الله ، وقالوا عنه : « أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً »<sup>(٣)</sup> .

فأوحى الله إلى نبيه بقوله : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض »<sup>(٤)</sup> .

وقوله : « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك ، إذن لارتاب المبطلون »<sup>(٥)</sup> .

وقالوا : « إنما يعلمه بشر »<sup>(٦)</sup> فرد الله عليهم بقوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين »<sup>(٧)</sup> .

وقالوا : « شاعر فترى به ريب المنون »<sup>(٨)</sup> . فرد عليهم بقوله : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين »<sup>(٩)</sup> .

قالوا عنه هذا وأكثر ، ورد الله عليهم بما ذكرنا وأكثر مما يبطل زعمهم ، ولكنهم تمادوا فى غيهم ، واستمروا فى تكذيبهم وعنادهم ، فلم يكن بعد ذلك إلا أن يلقمهم حجراً يسد أفواههم حتى لا ينسبوا بفرية ، ويدفع عنادهم حتى لا يقوى على أن يتصدى للنحق أو يعترض طريقه .

لم يبق إلا أن يتحداهم الله ، ويتحدى الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثل القرآن ما دام القرآن فى زعمهم من صنع البشر - محمد أو غيره - وليس من عند الله عز وجل .

ولقد جرى ذلك التحدى على تدرج ملحوظ :

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن فقال :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »<sup>(١٠)</sup> فما كان منهم إلا العجز التام .

(٤) الفرقان : ٦

(٦) النحل : ١٠٣

(٨) الطور : ٣٠

(١٠) الاسراء : ٨٨

(٣) الفرقان : ٥

(٥) العنكبوت : ٤٨

(٧) النحل : ١٠٣

(٩) يس : ٦٩

ثم تنزل معهم في التحدى ، فقال أمراً لنبيه ﷺ وقد رموه بالافتراء على الله في نسبة القرآن إليه : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »<sup>(١١)</sup> . فعجزوا كل العجز عن ذلك أيضا .

ثم نزل إلى أدنى من ذلك فقال : « قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »<sup>(١٢)</sup> .

وقال : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين \* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين »<sup>(١٣)</sup> فما استطاعوا معارضة ذلك القدر القليل .

ثم نزل إلى أدنى درجات التحدى فقال : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »<sup>(١٤)</sup> فعجزوا عن أن يأتوا بحديث مماثل له . . . أى حديث كان طال أم قصر ، ولزمهم العجز عن معارضته هم ومن وراءهم إلى يوم القيامة . ولم يكن عجزهم هذا ناشئاً عن كون القرآن غريباً عليهم في لغته ، بل كان من جنس كلامهم وبلغتهم التي يتكلمون بها ، ولم يكن عدم معارضتهم له ناتجاً عن عدم اهتمامهم بالمعارضة أو عدم اكتراثهم بالتحدى ، فقد أثار القرآن اهتمامهم بالمعارضة ، وبعث فيهم الرغبة الملحة في قبول التحدى والعمل على حطمه والخروج من المأزق الذي وضعهم فيه ، بما كان منه من تسفيه أحلامهم بنحو قوله عنهم : « إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل »<sup>(١٥)</sup> .

وتحقير آلهتهم بنحو قوله : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »<sup>(١٦)</sup>

ومع ذلك الاستفزاز فقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدى ، ولم نجد لهم معارضة يمكن أن تجارى أو تدانى القرآن في أسلوبه ونظمه ، أو في أى جانب من جوانب إعجازه التي سنذكرها ، وما ترويه لنا بعض كتب الأدب أو غيرها

(١٢) يونس : ٣٨

(١٤) الطور : ٣٤

(١٦) الحج : ٧٣

(١١) هود : ١٣

(١٣) البقرة : ٢٣ ، ٢٤

(١٥) الفرقان : ٤٤

من محاولات لمعارضة القرآن لم تخرج - في الواقع - عن كونها محاولات سخيفة ، ليس فيها من براعة النظم ولا من دقة المعنى شيء مطلقا ، وإنما هي هذيان كهذيان المحموم ، عار من كل شيء إلا من ركافة النظم وفساد المعنى .

\*\*\*

### ● جوانب الإعجاز في القرآن الكريم :

وجوانب الإعجاز في القرآن الكريم متعددة وهي :

١ - فصاحة كلماته .

٢ - براعة نظمه ، وجزالة أسلوبه .

٣ - بلاغته في الدلالة على معانيه .

وهذه الثلاثة يمكن أن نجتمعها تحت عنوان واحد هو « الإعجاز البياني » . ولا شك أن القرآن الكريم قد تميز عن كل ما عداه من كلام إلهي وغير إلهي بأسلوب فريد ، بلغ الغاية في جزالته وبلاغته ، ولو جئنا بأبلغ عبارة نطق بها العرب ووضعناها بجانب عبارة في موضوعها جاء بها القرآن الكريم ، لوجدنا بين العبارتين فرقا بلاغيا كبيرا ، فأبلغ عباراتهم في القصص « القتل أنفى للقتل » وعبارة القرآن في هذا الباب « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب »<sup>(١٧)</sup> وقد تناول علماء البلاغة كلتا العبارتين بالتحليل البلاغي ، وبينوا - بما لا يقبل الشك - أن عبارة القرآن فوق العبارة المأثورة عن العرب بمراتب كثيرة .

وبلغاء العرب - بسليقتهم - يدركون هذا التفوق البياني للقرآن الكريم حتى إن أحدهم . وهو الوليد بن المغيرة - يسمع القرآن من محمد ﷺ ، فيبهره أسلوبه وبلاغته ، ويعجب به أيما إعجاب ويشيع ذلك عنه ، فيأتى إليه أبو جهل ويطلب منه أن يقول في القرآن قولاً يبلغ قومه أنه منكر له ، فيجيبه الوليد بقولته المشهورة : « وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر : لا برجزه ، ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وإنه ليحطم ما تحته » .

ولا نطيل بالكلام عن بلاغة القرآن ، فذلك موضوع واسع ، تولاه بالبحث والبيان كثير من العلماء ، ولهم في ذلك مؤلفات كثيرة ومشهورة .

(١٧) البقرة : ١٧٩

٤ - اشتماله على حوادث وقعت في الأزمان الغابرة ، ولم يكن للنبي ﷺ علم بها ، لا عن معلم ، ولا عن كتاب ، ولا عن أى طريق أخرى غير القرآن ، كقصة موسى وغيره من الأنبياء ، وفي هذا يقول الله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ - بعد ما قص عليه من خبر موسى وقومه - « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين \* ولكننا أنشأنا قرناً فقطاول عليهم العمر \* وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين \* وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (١٨) .

٥ - اشتماله على أمور غيبية ، وحوادث مستقلة ، أخبر بها وتحقق وقوعها فيما بعد ، كقوله تعالى : « ألم \* غلبت الروم \* في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون \* في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون \* بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » (١٩) .

٦ - اشتماله على التشريعات الروحية ، والأدبية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والمالية ، التي كان - ولا زال - لها أكبر الأثر في إصلاح المجتمع الإنساني واستقراره ، لبلوغها مرتبة الكمال التشريعي ، ولخلوها من كل الثغرات التي تشتمل عليها القوانين الوضعية ، وقد ذكرنا - عند الكلام عن جوانب الهداية القرآنية كثيراً من التشريعات التي جاء بها القرآن ، والتي نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبأخيه الإنسان .

٧ - اشتماله على كثير من العلوم والمعارف التي كشف عنها العلم فيما بعد ، ولا زال يكشف عنها إلى اليوم ، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر ، وإلى الأبد .

ولا نريد أن نستقصى كل ما حواه القرآن تصريحاً ، أو تلميحاً ، من علوم كونية ، وإنما نكتفي بثلاثة أمثلة نذكرها كشواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم :

المثال الأول : قوله تعالى في الآية ( ٣٠ ) من سورة الأنبياء « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتنهما » فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل اليه العلم في زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال :

(١٩) الروم : ١ - ٥

(١٨) القصص : ٤٤ - ٤٦

« كانت السماء رتقاء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق هذه بالنبات ،  
وتلك بالمطر »

وفسرهما علماء العصر الحديث على ضوء ما توصلوا اليه من العلم فقالوا :  
« قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، وأن حادثاً كونياً  
جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة - بعد أن مرت عليها  
أطوار - تكسرت وصارت قطعاً ، كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات ،  
وهذه السيارات طافت حول الشمس ، وبقيت في قبضة جاذبتها ، والأرض  
واحدة من هذه السيارات ، فهي بنت الشمس ، والشمس هي المركز لكل  
هذه السيارات » (٢٠) .

ولا نكاد نجد تعارضاً بين الفهمين ، والآية تحتملها وتتسع لهما ، وذلك -  
بلا شك - وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم .

المثال الثاني : قوله تعالى في الآية ( ٥ ) من سورة يونس « هو الذي جعل  
الشمس ضياء والقمر نوراً » وقوله في الآية ( ٦١ ) من سورة الفرقان « تبارك  
الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » أليس في هاتين  
الآيتين دلالة صريحة على ما توصل اليه العلم الحديث من أن الشمس كوكب  
مضى ، وأنها كالسراج نوره من ذاته ، وأن القمر كوكب معتم نوره مستمد  
من غيره ؟ وهل يستطيع محمد ﷺ وهو النبي الأمي ، والعلم بالأكوان  
والأفلاك لا زال في مدرج الطفولة - أن يقرر هذه الحقيقة من تلقاء نفسه ؟  
كلا ، إنه من علم الله العليم الخبير . . أودعه في القرآن فكان من وجوه  
إعجازه .

المثال الثالث : قوله تعالى في الآيتين ( ٣ ، ٤ ) من سورة القيامة « أيجسب  
الإنسان أن لن نجمع عظامه \* بلى قادرين على أن نسوي بنانه » يقرأ العربي  
هذه الآية في عصر نزول القرآن فيفهم منها أنها تدل على أن الله قادر على أن  
يعيد الإنسان عند البعث بشراً سوياً ، بكل أعضاء جسمه ، وعلى صورتها  
الأولى ، حتى ما دق خلقه من هذه الأعضاء وهو البنان ، ونقرؤها اليوم على  
ضوء العلم فزراها تنطوي على ما توصل إليه العلماء من أن ( بصمات ) أنامل  
اليد لا تتشابه عند بني الإنسان ، فكل فرد له بصمات يتميز بها عن غيره ،  
ويمكن أن تكشف عن شخصيته . وإعادة هذه البصمات المختلفة المتمايزة عند  
الحياة الثانية على ما كانت عليه لكل فرد عند الحياة الأولى شيء لا يعظم على

(٢٠) النظر التفسيري والمفسرون ج ٣ ص ٢٧٠

الله سبحانه ، ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية التي لم يكشف عنها العلم إلا حديثاً ضرب من ضروب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم .

٨ - سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض ، ولا شك أن هذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم ، فالقرآن كتاب حافل بالقضايا العقلية ، والتشريعات الفقهية ، والحقائق العلمية ، والتاريخ ، والقصص ، والأمثال ، والأخبار عن وقائع ماضية وحاضرة ومستقبلية ، وهو في ذلك كله صادق لا يرقى إليه كذب ، مصيب لا يعتريه خطأ ، واضح لا يشوبه لبس ، متناسق لا يعترض نسقه تناقض أو تعارض ، مؤتلف غير مختلف .

ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال لكتاب جمع الكثير من ألوان المعرفة وضروب الهداية والإرشاد ، وضم الكثير من القصص والأخبار ، ووزعها وكررها في مواضع شتى على نحو من الإيجاز تارة ومن الإطناب أخرى ، مع تفاوت وتغاير وتفنن في التعبير يجعل القارئ مشدوداً دائماً إلى قراءته وسماعه دون سامة أو ملل أو إحساس بنبوة . . لا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال إلا للقرآن ، لأنه كلام الله الذي لا يضل ولا ينسى ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٢١)

هذه هي جوانب الإعجاز للقرآن الكريم ، أو هي أهم جوانبه . ولقد نرى بعض العلماء يذهبون إلى أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى أى من هذه الوجوه المذكورة ، وإنما يرجع إلى الصرفة ، ومعنى ذلك - على حد قولهم - أن القرآن الكريم كان في متناول العرب أن يأتوا بمثله ، ولكن الله صرفهم عن معارضته فصاروا بذلك عاجزين عنها . وهذا قول باطل لأنه يلزم عليه :

١ - أن يكون القرآن في مستوى كلام البشر ، وهذا مخالف للواقع ، وأرباب البلاغة من المشركين أنفسهم قد اعترفوا بأنه في أعلا درجات البلاغة التي لا يتناول إليها أحد منهم ، وفي وصف الوليد بن المغيرة للقرآن - وقد ذكرناه آنفاً - ما يشهد بذلك ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

٢ - أن يكون المعجز في الحقيقة هو الله وليس القرآن ، مع أن آيات التحدى تكاد تكون صريحة في أن الإعجاز راجع إلى القرآن ذاته ، وعلى ذلك انعقد الإجماع .

٣ - أن الإنس والجن - بصرفهم عن المعارضة بحيث أصبحوا عاجزين عنها - صاروا بمنزلة الموق ، وحينئذ لا يكون للتحدى معنى ولا فائدة .  
ولقد نرى - أيضا - بعض العلماء يقصرون إعجاز القرآن على جانب واحد من جوانب الإعجاز المذكورة ، وهذا - إذا أخذ على ظاهره - خطأ بين ، إذ أن كل ما ذكرناه من جوانب الإعجاز متحقق في القرآن الكريم .  
والظن بهؤلاء الذين قصروا إعجاز القرآن على جانب واحد من الجوانب التي ذكرناها : أنهم لم يقصدوا بذلك أن القرآن ليس فيه من جوانب الإعجاز إلا هذا الجانب فقط ، وإنما قصدهم : أن هذا الجانب الذي اقتصروا عليه يحقق الإعجاز للقرآن الكريم ، وهذا لا يمنع من وجود جوانب أخرى تحقق نفس الشيء ، وبانضمام بعضها إلى بعض يكون الإعجاز أتم وأقوى .  
بقيت حقيقة يجب أن نعلمها ، وهي :

أن إعجاز القرآن من ناحية فصاحة كلماته ، وبراعة نظمه ، وجزالة أسلوبه، وبلاغته في الدلالة على معانيه ، أمر متحقق في كل سورة ، بل وفي كل آية تفيد فائدة تامة ، أما ما وراء ذلك من جوانب الإعجاز ، كاشتماله على أمور غيبية مستقبلية وقعت بعد كما أخبر عنها ، واشتماله على التشريعات الحكيمة ، وانطوائه على حقائق علمية لا يزال العلم الحديث يكشف عنها ، فهذا لا يتحقق في كل آية ولا في كل سورة ، وإنما يتحقق في القرآن جملة ، ومن هنا حقق العلماء أن التحدى بأقصر سورة منه أو ما يعادلها أو بأى حديث مثله مهما قصر ، كان للعرب أولاً ، لأنهم أرباب اللسان ، وفرسان البيان ، فإن عجزوا هم عن معارضته فغيرهم أعجز ، والتحدى بهذا القدر من القرآن راجع إلى فصاحة كلماته ، وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه ، وبلاغته ، وهو ما عبرنا عنه بالجانب البياني ، وهذا كله متحقق - كما قلنا - في القدر المتحدى به أياً كان .

أما غير ذلك من جوانب الإعجاز التي تتحقق في القرآن ككل ولا تتحقق في كل أبعاضه ، فذلك يدركه كل إنسان عربياً كان أم غير عربي ، وهم جميعاً متحدون بالقرآن جملة ومن كل هذه الجوانب بقوله سبحانه « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢٢)

\* \* \*

## القرآن و العلم

● القرآن يشيد بفضل العلم ويرفع من أقدار العلماء :  
فضل العلم قضية لا تحتاج إلى برهان يؤيدها ، وأقدار العلماء ومكانتهم  
العالية حقيقة لا ينكرها إلا من أنكر عقله وسفه نفسه !!  
والقرآن الكريم - في كثير من آياته - يشيد بفضل العلم ، ويرفع من أقدار  
العلماء ، وهو إذ يفعل ذلك لا يقصد إثبات حقيقة تحتاج إلى اثبات ، ولكنه  
يهدف إلى أن ينبه القلوب الغافلة والعقول اللاهية إلى قدسية العلم وسمو  
العلماء ، لعلها تتحرر من جهلها فتتخرط في موكب العلم وتمضي في ركاب  
العلماء لا تلوى على جهالة .

ولقد تكون أبلغ قارعة تفرع قلوب الغافلين وعقول اللاهين ، تلك الآيات  
البيّنات التي تقرر : أن العلم صفة من صفات الكمال التي يتصف بها الله  
سبحانه ويجب أن نقده عن الاتصاف بضعها :

« . . . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال »<sup>(١)</sup>

« إن الله عالم غيب السموات والأرض . . . »<sup>(٢)</sup> .

« إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علماً »<sup>(٣)</sup> .

ولقد يكون أبلغ شاهد بعد هذه الآيات على فضل العلم ومكانة العلماء ،  
تلك الآيات القرآنية التي وردت في حق الأنبياء عليهم السلام : تثبت لهم  
صفة العلم ، وتقرر - في صراحة ووضوح - أنها من نعم الله التي منَّ بها  
عليهم :

يقول - سبحانه - في أول ما نزل من القرآن على نبيه محمد ﷺ : « اقرأ  
باسم ربك الذي خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذي  
علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم »<sup>(٤)</sup> .

ويقول ممتناً عليه : « وعلمك ما لم تكن تعلم » وكان فضل الله عليك  
عظيماً »<sup>(٥)</sup> .

(٢) فاطر : ٣٨

(٤) العلق : ١ - ٤

(١) الرعد : ٩

(٣) طه : ٩٨

(٥) النساء : ١١٣

ويقول مخاطباً عيسى عليه السلام وممتناً عليه : « يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . . . » (٦) .

ويقول في شأن داوود وسليمان عليهما السلام : « ولقد آتينا داوود وسليمان علماً . . . » (٧) .

ويقول عن يوسف عليه السلام : « . . . ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » (٨) .

ويقول في شأن لوط عليه السلام : « ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً . . . » (٩) .

ويقول عن آدم عليه السلام : « وعلم آدم الأسماء كلها . . . » (١٠) .

ثم نجد القرآن الكريم - بعد ذلك - ينكر على من يسوى بين العلماء وغير العلماء فيقول في أسلوب تهكمي ساخر : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ؟ (\*) .

ثم هو بعد يقرر هذه الحقيقة : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . . . » (١١) .

ولعل الله جمع بين الايمان والعلم هنا ، وجعلها السبب في علو المكاتب والمنزلة عنده ، لأن الايمان لا يقوم ولا يقوى إلا على أساس العلم بالله ، والعلم بكل ما جاء منه وصدر عنه :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

نعم ، في كل شيء له آية تدل على وجوده ، ووحدانيته ، وقدرته ، وربوبيته . . . وكل صفات الكمال له ، ولكنها آيات لا يعقلها إلا العالمون . أما الجاهلون : ففي غفلة وإعراض عن هذا كله ، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم :

« وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (١٢) .

(٧) النمل : ١٥  
(٩) الأنبياء : ٧٤  
(\*) الزمر : ٩  
(١٢) يوسف : ١٠٥

(٦) المائدة : ١١٠  
(٨) يوسف : ٢٢  
(١٠) البقرة : ٣١  
(١١) المجادلة : ١١

● القرآن يدعو إلى العلم والمعرفة :

ولأن الله - سبحانه - يعلم أن من الناس ناساً قلوبهم غافلة عما في الكون من حقائق ، وعقولهم لاهية عما تنطوي عليه هذه الحقائق من علوم ومعارف ، وأنهم بتعطيلهم لقلوبهم وعقولهم عن النظر في ملكوت السموات والأرض ، واستنباط ما أودع الله فيها من علوم وأسرار قد أهدروا إنسانيتهم ، وانحطوا بها إلى مستوى الحيوان الأعجم الذى لا عقل له ولا إدراك .

« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (١٣) .

لأن الله يعلم أن من الناس ناساً هذا شأنهم ، ساق في محكم كتابه آيات تهب بأصحاب هذه القلوب اللاهية : أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم على الكون وما فيه من آيات ، ليستخلصوا منها أسرارها وعلومها التى تأخذ بيدهم الى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة ، فقال لهم في صرامة الأمر واستنكار اللائم :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . . » (١٤) .

« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء . . » (١٥) .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت \* وإلى السماء كيف رفعت \* وإلى الجبال كيف نصبت \* وإلى الأرض كيف سطحت » (١٦) .

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دائية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (١٧) .

« وفى الأرض آيات للموقنين \* وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » (١٨) .

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جددٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود \* ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء . . » (١٩) .

(١٤) يونس : ١٠١

(١٦) الغاشية : ١٧ - ٢٠

(١٨) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

(١٣) الأعراف : ١٧٩

(١٥) الأعراف : ١٨٥

(١٧) الأنعام : ٩٩

(١٩) فاطر : ٢٧ ، ٢٨

انظر الى هذه الآيات ونحوها مما ورد في القرآن الكريم ، فسوف ترى أنها تدعو بإصرار وإلحاف إلى إعمال العقل والفكر في آيات الله التي بثها في الأفاق والأنفس ، لتأخذ منها - كما قدمنا - الدليل على وجود الله وقدرته ، ثم نستخلص منها بعد ذلك ما تحويه وتشير اليه من علوم ومعارف تنفع البشرية وتسعدها في حياتها الدنيا التي لا تقوم إلا على العلم والمعرفة .

وتأمل قول الله سبحانه : « إنما يحشى الله من عباده العلماء » تجد أنه يقرر في صراحة ووضوح - أن للعلم دخلاً كبيراً في معرفة عظمة الخالق عن طريق ما يهدى اليه من المعرفة بعظمة المخلوق الذي فيه من الأسرار ما يجعل العالم الباحث المنتقب يؤمن عن مشاهدة ويقين بأن الله هو الخلاق ذو القوة المتين ، فيتصاغر علمه أمام علم الله ، وتتضاءل معرفته أمام معرفة الله ، ويتبدد كبرياؤه وغروره أمام عظمة رب الكون .. رب العالمين !! ..

ومن هنا كانت قلوب الجاهلين مغلقة لا تفتح على حق ولا تقبل حقيقة .  
« كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعقلون » (٢٠) .

وكانت قلوب العالمين مفتوحة على الحق تهتدى إليه وتؤمن به على طمأنينة و يقين :

« وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون » (٢١) .  
« والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » (٢٢) .  
« شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » (٢٣) .  
« وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك، فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (٢٤) .  
والقرآن الكريم - حين يدعونا إلى العلم والمعرفة - لا يريد منا علماً فطيراً ، ولا يدعونا إلى معرفة فجأة ، وإنما يريد منا علماً ناضجاً يرتكز على قواعد ثابتة ، ومعرفة كاملة تنبني على مقدمات سليمة ، وأن يكون سبيل ذلك كله وسائل العلم والمعرفة التي أودعها الله في الإنسان ، يقول عز من قائل : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » (٢٥) .

(٢١) العنكبوت : ٤٣

(٢٢) آل عمران : ١٨

(٢٥) الاسراء : ٣٦

(٢٠) الروم : ٥٩

(٢٢) آل عمران : ٧

(٢٤) الحج : ٥٤

وتأمل قوله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً »  
 بعد قوله : « ولا تقف ما ليس لك به علم » تجد أن الله سبحانه - ينيه إلى أن  
 أدوات المعرفة ووسائلها عند الإنسان هي : سمعه ، وبصره ، وفؤاده ، فمن  
 تلقف الوقائع وتقبل الأخبار ، وانتهى إلى النتائج بدون أن يتحراها ويتأكد  
 صدقها وصحتها بكل وسائل المعرفة التي أودع الله فيه ، فقد عطل ما ميزه الله  
 به عن غيره من الحيوان ، وسوف يسأله الله يوم القيامة عما ضيع من نعمة الله  
 التي فضله بها وأوجب عليه شكرها بقوله : « والله أخرجكم من بطون  
 أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم  
 تشكرون » (٢٦) .

وتأمل - بعد ذلك - قوله - سبحانه - في شأن من ضلوا طريق الحق وأعرضوا  
 عن سواء السبيل « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » (٢٧) .  
 وقوله : « وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن، وإن الظن لا يغني من  
 الحق شيئاً » (٢٨) .

تأمل هاتين الآيتين تجد أن الله ما نعى على هؤلاء الضالين ضلالتهم إلا  
 لأنهم اطرحوا العلم الموصل للحقيقة وساروا وراء ظنونهم وأهوائهم . والظن  
 سراب والهوى مهلكة .

والقرآن الكريم يكره لنا كل الكراهية أن نكون مقلدين لا مبتكرين :  
 « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو  
 كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . » (٢٩) .

ولا يرضى القرآن للباحث عن الحقيقة أيأ كانت أن يبحث عنها في جو من  
 الفوضى التي تحول دون رؤيتها ، وتعوق عن الوصول إليها ، وإنما يرضى لنا  
 ويطلب منا أن نوفر للبحث العلمي الموصل للمعرفة بها جواً هادئاً يبعث على  
 التأمل والتدبر في روية وحكمة ، يقول سبحانه آمراً نبيه ليوجه المعاندين  
 المكابرين من أمته :

« قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » (٣٠) .  
 يقول العلامة الزمخشري في تفسيره لهذه الآية :

(٢٧) النجم : ٢٣

(٢٩) البقرة : ١٧٠

(٢٦) النحل : ٧٨

(٢٨) النجم : ٢٨

(٣٠) سبأ : ٤٦

« والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهي : أن تقوموا لوجه الله خالصا متفرقين : اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تفكروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به ، أما الاثنان : فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر متصادقين متنافسين ، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا يبنض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسسته . وكذلك الفرد : يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم . والذي أوجب تفرقهم مثني وفرادي : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمي البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الانصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصره المذهب » (٣١) .

ويقر القرآن الكريم - في وضوح تام - أن الهداة والدعاة والقادة من أصحاب الرسالات الدينية ، أو المذاهب السياسية أو غيرها ، لا بد أن يكونوا على جانب كبير من العلم والمعرفة ، حتى تتأكد زعامتهم وتلزم طاعتهم ، ولا يرضى القرآن لإنسان يحترم إنسانيته أن ينقاد لمن لا علم عنده ، ولا أن يكون منه بمنزلة التابع من المتبوع ، فإن من حرم العلم حرم الخير كله ، ومن لم يتحل بالمعرفة لا يصلح أن يكون قدوة : يقول الله - سبحانه - على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً أباه : « يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً » (٣٢) .

ويقول مخاطباً موسى وهارون عليها السلام « فاستقيا ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » (٣٣) .

ويقول لنبية محمد ﷺ : « . . . ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » (٣٤) .

والقرآن الكريم لا يرى للعلم حداً يقف الإنسان عنده ، وإنما يرى العلم بحرراً لا ساحل له ، ويطلب منا أن نتزود منه ونزداد يوماً بعد يوم دون أن نقف عند غاية ، ولهذا يقول الله - سبحانه - لرسوله محمد ﷺ وهو الأسوة والقدوة : « وقل رب زدني علماً » (٣٥) ولا يرى القرآن غضاضة في أن يتلقى الفاضل عمن دونه في الفضل ما لديه من علم يجهله ولو كان ذلك لا يتم إلا إذا كان منه بمنزلة التابع من المتبوع : يحل حينها حل ويرتحل حينها ارتحل ، وفي ذلك يقصر

(٣١) تفسير الكشاف للرحمى ج ٢ ص ٥٦٥ - ٥٦٦ - ط : الحلبي سنة ١٩٤٨

(٣٢) مريم : ٤٣ (٣٣) يونس : ٨٩ (٣٤) الحالية : ١٨

(٣٥) طه : ١١٤

علينا القرآن الكريم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام :  
 « فارتدا ( يعني موسى وقتاه ) على آثارهما قصصا \* فوجدنا عبدا من عبادنا  
 آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما \* قال له موسى هل أتبعك على أن  
 تعلمن مما علمت رشدا \* قال إنك لن تستطيع معي صبرا \* وكيف تصبر على  
 ما لم تحط به خبرا \* قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا \*  
 قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا . » (٣٦) . . . الى  
 آخر القصة (٣٧) .

وتأمل قوله سبحانه : « فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك  
 منه ذكرا » تجد أن القرآن الكريم لا يرضى بالتسرع في طلب المعرفة ،  
 ولا يعلم التريث في تحمله وتلقيه ، لأن ذلك قد يفوت الكثير على طالب  
 المعرفة ، ومن أجل هذا يقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ :

« ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه . وقل رب زدني علما » (٣٨) .  
 ويقول : « لا تحرك به لسانك لتعجل به \* إن علينا جمعه وقرآنه \* فإذا  
 قرأناه فاتبع قرآنه \* ثم إن علينا بيانه » (٣٩) .

\* \* \*

### ■ القرآن وما يجويه من العلوم :

تتبع العلامة المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى آيات القرآن الكريم  
 فلاحظ : أن الآيات التى تتعلق بالعلوم الكونية سبعائة وخسون آية  
 صريحة ، وأن الآيات التى تتعلق بالفقه الإسلامى لا تزيد عن مائة وخمسين  
 آية صريحة . وانطلق - من خلال هذه النتيجة - بيدى الأسف والعجب لكثرة  
 ما ألفه علماء المسلمين فى الفقه ، وقلة ما ألفوه فى علوم الكائنات ، وكان

(٣٦) الكهف : ٦٤ - ٨٢

(٣٧) راجع ما كتبه المسرور على هذه الآيات ، وراجع صحيح البخارى وشرحه لهذا الحديث فى كتاب العلم .

قال القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا » ما نصه : « فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ؛ فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول ، والفضل لمن فضله الله ، فالخضر إن كان وليا لموسى أفضل منه لانه نبي ، والنبي أفضل من الولي ، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة » ج ١١ ص ١٧ ط : دار الكتب المصرية .

(٣٩) القيامة : ١٦ - ١٩

(٣٨) طه : ١١٤

الأولى بهم أن يبرعوا أكثر وأكثر في علوم الكائنات التي أعطاها الله حظاً أوفر من كتابه<sup>(٤٠)</sup> .

ولسنا ننكر على الشيخ طنطاوى - إذا تغاضينا عن منحاه في التفسير العلمى للقرآن - ما أبداه من أسف وعجب ، فمبلغ علمنا وتعليلنا لزيادة الآيات المتعلقة بالعلوم الكونية على الآيات المتعلقة بالعلوم الفقهية تجعله على حق فيما ذهب إليه ، ذلك لأن العلوم الكونية لها تعلق قوى بالعقيدة الاسلامية ، فالنظر فيها طريق الى معرفة الله ، وكلما ازداد الإنسان علماً بأسرار الكون ، كلما ازداد علماً بخالقه ومكونه ، هذا علاوة على ما يترتب على العلم بالكون وأسراره من تقدم ، ورقى ، وازدهار مادي ، لا يقلل في نظر الدين عن الجانب الدينى أو الروحى .

أما العلوم الفقهية أو علوم التشريع ، فهى - على أهميتها - تأتى فى المرتبة الثانية بعد العقيدة ، فالعقيدة أساس تقوم عليه الشريعة ، ولا يمكن أن يكون لها كيان بدونها .

والحقيقة التى لا يمارى فيها أحد : أن القرآن الكريم حوى من علوم الدين والدنيا ما فيه خير البشرية وسعادتها فى الدنيا والآخرة .

ولكن هذه الحقيقة تنازعها فريقان من المسلمين على مدى تاريخ القرآن الطويل : فريق غالى وبالغ فقال : إن القرآن الكريم حوى كل علوم الدنيا والدين ، ما كان منها وما يكون إلى يوم القيامة .

وفريق اعتدل والتزم أمراً وسطاً فقال : إن القرآن حوى الكثير من علوم الدنيا والدين ، بعضها صريح ، وبعضها بتلميح ، ونبه إلى أن الكون مليء بعلوم كثيرة حث على استنباطها من خلال كتاب الكون المفتوح أمام أبصارنا وبصائرنا لتفتح لنا الطريق الى الله ، ثم الى حياة زاهرة ، آمنة ، مستقرة . .

\*\*\*

● المتطرفون الذين حملوا القرآن كل علوم الدنيا والدين :

ولقد كان من أبرز العلماء القدامى الذين تبنا القول الأول وجهروا به وروجوا له فى الأوساط العالمية ، حجة الاسلام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، فقد نقل فى كتابه « إحياء علوم الدين »<sup>(٤١)</sup> عن بعض العلماء : « أن القرآن

(٤٠) انظر الجواهر فى تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوى جوهرى ج ٢٥ ص ٥٣ ط : الخلى سنة

١٣٤٠ - ١٣٥١ هـ

(٤١) ج ٣ ص ١٣٥ ط : لجنة نشر الثقافة الاسلامية

يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، إذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف : إذ لكل كلمة ظهر ، وباطن ، وحد ، ومطلع . . . . ثم يروى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن » . . ثم يقول بعد ذلك كله : « وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته ، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفي القرآن إشارة الى مجامعها » . . ثم يزيد على ذلك فيقول : « بل كل ما أشكل فهمه على النظر ، واختلف فيه الخلاق في النظريات والمعقولات ، في القرآن اليه رموز ودلالات عليه ، يختص أهل الفهم بدركها » .

ثم يمضى الغزالي - في كتابه « جواهر القرآن » الذى ألفه فيما يبدو بعد كتابه : الإحياء - فيقرر هذا الرأى الذى قرره في الإحياء ويزيده بيانا وتفصيلا ، وذلك حيث يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن ، فيذكر علم الطب والنجوم وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان ، وتشريح أعضائه ، وعلم السحر ، وعلم الطلسمات . . وغير ذلك ، ثم يقول : « ووراء ما عدده علوم أخرى يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمّن يعرفها ، ولا حاجة إلى ذكرها ، بل أقول : ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها : أن فى الإمكان والقوة أصنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود وإن كان فى قوة الأدمى الوصول إليها ، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن . . وعلوم أخر ليس فى قوة البشر إدراكها والإحاطة بها . . ثم هذه العلوم - ما عددها وما لم نعددها - ليست أوائلها خارجه من القرآن ، فإن جميعها متفرقة من بحر واحد من بحار معرفة الله ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد . . فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال - مثلاً - الشفاء والمرض ، كما قال تعالى .حكاية عن إبراهيم « وإذا مرضت فهو يشفين »<sup>(٤٢)</sup> وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلها بحسبان ، وقد قال تعالى : « الشمس والقمر بحسبان »<sup>(٤٣)</sup> وقال : « وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »<sup>(٤٤)</sup>

٥ (٤٣) الرحمن :

(٤٢) الشعراء : ٨٠

(٤٤) يونس : ٥

وقال : « . . . وخسف القمر \* وجع الشمس والقمر »<sup>(٤٥)</sup> وقال : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل »<sup>(٤٦)</sup> وقال : « والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم »<sup>(٤٧)</sup> ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفها ، وولوج الليل في النهار ، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه . ولا يعرف كمال معنى قوله « يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم \* الذي خلقك فسواك فعدلك \* في أي صورة ما شاء ركبك »<sup>(٤٨)</sup> إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً ، وعددها ، وأنواعها ، وحكمتها ، ومنافعها ، وقد أشار في القرآن - في مواضع - إليها ، وهي من علوم الأولين والآخرين . وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين . وكذلك لا يعرف معنى قوله : « سويته ونفخت فيه من روحي »<sup>(٤٩)</sup> ما لم يُعلم النسوية ، والنفخ ، والروح ، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها . ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها . فتفكر في القرآن والتمس غرابه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين<sup>(٥٠)</sup> .

ثم يأتي جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ ويقرر في كتابه « الإلتقان في علوم القرآن » وفي كتابه « الإكليل في استنباط التنزيل » ما قرره الغزالي من أن القرآن حوى كل علوم الأولين والآخرين ، ويسوق من الأدلة على ذلك قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء »<sup>(٥١)</sup> .

وقوله : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء »<sup>(٥٢)</sup> .

وقوله ﷺ في شأن القرآن . . . كما في سنن الترمذي - « فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم » وقول ابن مسعود رضي الله عنه - كما أخرجه ابن أبي حاتم - « أنزل في القرآن كل علم ، ويُن لنا فيه كل شيء ، لكن علمنا يقصر عما يُن لنا في القرآن »<sup>(٥٣)</sup> .

(٤٦) الحج : ٦١ ، لقمان : ٢٩

(٤٨) الانفطار : ٦ - ٨

(٤٥) القيامة : ٨ ، ٩

(٤٧) يس : ٣٨

(٤٩) الحجر : ٢٩ وسورة ص : ٧٢

(٥٠) جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤ ط : كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ

(٥١) الأنعام : ٣٨ (٥٢) النحل : ٨٩

(٥٣) الإكليل ص ٢ ، والالتقان ص ١٢٦

ثم يذكر السيوطى عن أبى الفضل المرسى : أنه قال فى تفسيره : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله ﷺ - خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى - ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، حتى قال : « لوضاع لى عقل بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى . ثم ورث عنه التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حملة الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه . . »

ثم تكلم عن العلوم التى تفرعت عن القرآن فذكر : علم القراءات ، وعلم النحو ، وعلم التفسير ، وعلم الأصول ، وعلم الفقه ، وعلم القصص والتاريخ ، وعلم تأويل الآى ، وعلم الفرائض ، وعلم البلاغة . . ثم قال : « هذه الفنون أخذتها الأمة الإسلامية منه - يعنى القرآن - وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل : الطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، والنجامة وغير ذلك من العلوم :

أما الطب : فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة ، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة ، وقد جمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعالى : « وكان بين ذلك قواما »<sup>(٥٤)</sup> .

وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله ، وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله تعالى : « شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »<sup>(٥٥)</sup> . ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب : « وشفاء لما فى الصدور »<sup>(٥٦)</sup> .

وأما الهيئة : ففى تضاعيف سوره من الآيات التى ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات . وأما الهندسة : ففى قوله تعالى : « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب \* لا ظليل ولا يغنى من اللهب »<sup>(٥٧)</sup> فإن فيه قاعدة هندسية ، وهى أن الشكل المثلث لا ظل له .

وأما الجدل : فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج ، والقول بالموجب ، والمعارضة وغير ذلك شيئا كثيرا ، ومناظرة ابراهيم نمرود ، ومحاجته قومه أصل فى ذلك عظيم .

(٥٥) النحل : ٦٩

(٥٧) المرسلات : ٣٠ ، ٣١

(٥٤) الفرقان : ٦٧

(٥٦) يونس : ٥٧

وأما الجبر والمقابلة : فقد قيل : إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأسم سائلة ، وأن فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقى مضروب بعضها في بعض .  
وأما النجامة : ففي قوله تعالى « أو أثارة من علم »<sup>(٥٨)</sup> فقد فسره بذلك ابن عباس .

وفيه أصول الصنائع ، وأسبغ الآلات التي تدعو الضرورة إليها : كالحياطة في قوله « وطفقا يخصفان »<sup>(٥٩)</sup> . والحدادة « آتوني زبر الحديد »<sup>(٦٠)</sup> . والبناء في آيات . والنجارة : « واصنع الفلك بأعيننا »<sup>(٦١)</sup> . والغزل : « نقضت غزلها »<sup>(٦٢)</sup> . والنسج : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا »<sup>(٦٣)</sup> . والفلاحة : « أفرايتم ما تحرثون . . »<sup>(٦٤)</sup> الآيات ، والصيد : في آيات . والغوص : « والشياطين كل بناء وغواص »<sup>(٦٥)</sup> « وتستخرجوا منه حلية »<sup>(٦٦)</sup> . والصباغة : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا »<sup>(٦٧)</sup> . والزجاجة : « صرح محمد من قوارير »<sup>(٦٨)</sup> « المصباح في زجاجة »<sup>(٦٩)</sup> . والنفخارة : « فأوقد لي يا هامان على الطين »<sup>(٧٠)</sup> . والملاحة : « أما السفينة . . »<sup>(٧١)</sup> الآية . والكتابة : « علم بالقلم »<sup>(٧٢)</sup> وفي آيات أخر . واخبز : « أحمل فوق رأسى خبزًا »<sup>(٧٣)</sup> . والطبخ : « بمجمل حنيد »<sup>(٧٤)</sup> . والقصار : « وثيابك فطهر »<sup>(٧٥)</sup> « قال الحواريون »<sup>(٧٦)</sup> ، وهم القصارون . والجزارة : « إلا ما ذكيتم »<sup>(٧٧)</sup> . والبيع والشراء : في آيات . والصبغ : « صبغة الله »<sup>(٧٨)</sup> « جدد بيض وحمر »<sup>(٧٩)</sup> . والحجارة : « وتحتون من الجبال بيوتا »<sup>(٨٠)</sup> : والكيالة والوزن . في آيات كثيرة . والرمي : « وما

(٥٩) الأعراف : ٢٢ و طه : ١٢١

(٦١) هود : ٣٧

(٦٣) العنكبوت : ٤١

(٦٥) سورة ص : ٣٧

(٦٧) الأعراف : ١٤٨

(٦٩) النور : ٣٥

(٧١) الكهف : ٧٩

(٧٣) يوسف : ٣٦

(٧٥) المدثر : ٤

(٧٧) المائدة : ٣

(٧٩) فاطر : ٢٧

(٥٨) الأحقاف : ٤

(٦٠) الكهف : ٩٦

(٦٢) النحل : ٩٢

(٦٤) الواقعة ٦٣ وما بعدها

(٦٦) النحل : ١٤

(٦٨) النمل : ٤٤

(٧٠) القصص : ٣٨

(٧٢) العلق : ٤

(٧٤) هود : ٦٩

(٧٦) آل عمران : ٥٢ والمائدة : ١١٢ والصف : ١٤

(٧٨) البقرة : ١٣٨

(٨٠) الشعراء : ١٤٩

رमित إذ رमित»<sup>(٨١)</sup> «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة»<sup>(٨٢)</sup> . وفيه من أسماء الآلات ، وضروب المأكولات ، والمشروبات والمنكوحات ، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء»<sup>(٨٣)</sup> قال السيوطي : انتهى كلام المرسى ملخصاً مع زيادات<sup>(٨٤)</sup> .

.. وأخيراً عقب السيوطي على هذا بقوله : « وأنا أقول : قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء : أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها ، وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السموات والأرض وما في الأفق الأعلى ، وما تحت الثرى و.. الى غير ذلك مما يحتاج إلى مجلدات»<sup>(٨٥)</sup> .

ثم يأتي من المحدثين من يقول بما قال به الغزالي والسيوطي وأبو الفضل المرسى ، مع مزيد من المبالغة والتكلف ، وعلى رأس هؤلاء المحدثين المرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى فقد حمل كتاب الله كل علوم الدنيا والدين في كتابه « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » .

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم في هذا العصر الحديث وفي وقتنا الحاضر بالذات لوجدنا لأصحاب هذا المنزع العلمى في فهم القرآن الكريم وتفسيره بحوثاً كلها تعسف وتكلف ، ولوجدنا لهم في ذلك مؤلفات كثيرة تُحمَل بعض النصوص القرآنية ما لا تحتمل من نظريات علمية مستحدثة .

ونستعرض بعض هذه الكتب فنرى فيها عجبا :

ففى كتاب (( الجواهر في تفسير القرآن الكريم )) للمرحوم الشيخ طنطاوي جوهرى عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . . » الآيات (٦٧) وما بعدها إلى آخر القصة . . . نراه يقول ما نصه :

« وأما علم تَمْضِير الأرواح ، فإن من هذه الآية ، استخراجة . إن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمرىكا أولاً ، ثم بأوروبا ثانياً . . . » .

(٨٢) الأنفال : ٦٠

(٨١) الأنفال : ١٧

(٨٣) الأنعام : ٣٨

(٨٤) الأكليل ص ٢ - ٥ ، والاتقان ج٢ . ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٨٥) الاتقان ج٢ ص ١٢٩ - ١٣٠

ثم يذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم ، وكيفية انتشاره ، ومدى فائدته ، ثم يقول : « ولما كانت السورة التي نحن بصددنا قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته ، وكذلك حمازه ، ومسألة الطير وأبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم . . . وعلم الله أننا نعجز عن ذلك ، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة ، كأنه يقول : إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تياسوا من ذلك ، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ، وأسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون . . . » (\*) .

وفي كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعداد » للمرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي نراه يقول في ص ( ٢٣ - ٢٥ ) ما نصه :  
« إن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا ، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه . »

ثم يذكر بعض المكتشفات العلمية التي يقول إن القرآن سبق إليها فيقول :  
« . . . وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيماوى ، بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير ، والقرآن يقول : « وكل شيء عنده بمقدار » (٨٦) .  
« وكشفوا طريقة إمساك الظل ، أى التصوير الشمسى ، والقرآن يقول :  
« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » (٨٧) . »

وفي كتاب (( الإسلام والطب الحديث )) للمرحوم الدكتور عبد العزيز اسماعيل ، نراه يعرض لقوله تعالى في الآية ( ٢٢ ) من سورة البقرة « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » تحت عنوان (( الحياة تحت ضوء القرآن )) فيقول في ص ( ١٣ - ١٥ ) ما نصه :

(\*) الجواهر ج١ ص ٧١ - ١٧٧ ط الخليل ١٣٤٠ - ١٣٥١ هـ

(٨٦) الفرقان : ٤٥

(٨٧) الرعد : ٨

« هذه الآية الكريمة معناها - والله أعلم - أن اللحوم والأسماك والألبان .  
 إلخ . أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة »  
 ثم يعقد مقارنة بين الأغذية الحيوانية والأغذية النباتية ، ويخرج بنتيجة تقرر  
 هذه الأفضلية ثم يقول :  
 « إن هذه النتيجة التي لخصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ  
 سنوات قليلة » .

وها نحن - أخيراً - نقرأ لبعض الكاتبيين ، ونسمع من بعض المحاضرين  
 نماذج من هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم وفي كثير منها تكلف ظاهر :  
 يقول بعضهم : إن الصعود إلى القمر والنزول على سطحه - وهو أحدث ما  
 وصل إليه العلم في عصرنا - قد ورد في آيات من القرآن الكريم منها :  
 قوله تعالى : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار  
 السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان »<sup>(٨٨)</sup> . يعنى سلطان  
 العلم .

وقوله : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو  
 على جمعهم إذا يشاء قدير »<sup>(٨٩)</sup> . وها هو ذا سائل يسأل المرحوم الاستاذ العقاد  
 فيقول :

قوله تعالى : « فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ،  
 بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم \* تدمر كل شيء بأمر ربها  
 فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين »<sup>(٩٠)</sup> . أليس  
 من الممكن أن تعتبر هذه الآية الشريفة - يريد الأيتين - إشارة مبكرة من القرآن  
 الكريم إلى القذيفة الذرية ، ودليلاً قاطعاً على سبق القرآن العلمي الذي أمكن  
 اثباته في مواضع كثيرة ؟<sup>(٩١)</sup> .

هذه بعض الأقوال والآراء لجماعة من الغلاة المتطرفين !! . . .

\*\*\*

● المعتدلون الذين لم يحملوا القرآن كل العلوم :  
 أما الفريق المعتدل الذي لم يشأ أن يُحمّل القرآن كل علوم الأولين  
 والآخرين ، ولا أن يخضعه للنظريات العلمية ، فأبرز علمائه الأقدمين :

(٨٩) الشورى : ٢٩

(٨٨) الرحمن : ٣٣

(٩٠) الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥

(٩١) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠١ ط : دار الكتاب العربي

الفقيه الأصولي أبو إسحاق الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ فقد حمل لواء المعارضة ، وتوجه باللوم إلى من حملوا القرآن كل علوم الدنيا والدين ، وبين أنهم قد تجاوزوا الحد في دعواهم على القرآن فقال :

« ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها - وهم العرب - ينبنى عليه قواعد : منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحده فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات ، والتعاليم : كاهندسة وغيرها من الرياضيات ، والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهاها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح »<sup>(٩٢)</sup> .

ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا ، ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن ، فيقول : « إن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في هذا المدعى سوى ما تقدم<sup>(٩٣)</sup> ، وما ثبت من أحكام التكليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلي ذلك ، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا<sup>(٩٤)</sup> . ويمضى الشاطبي فينتقض أدلة الغلاة التي استندوا إليها من نحو قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء »<sup>(٩٥)</sup> وقوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء »<sup>(٩٦)</sup> بحملها على ما يتعلق بحال التكليف والتعبد .

ثم ينهى الشاطبي كلامه بقوله :

« . . . فليس من الجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة ، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول على الله ورسوله فيه ، والله أعلم وبه التوفيق »<sup>(٩٧)</sup>

(٩٢) الموافقات ج ٢ ص ٧٩ ط : التجارية . وهو يقصد بما تقدم ما قرره من أن الشريعة أمية وأهلها كذلك وتنزيلها كان على مقتضى حال المنزل عليهم ، وحالهم الاعتناء ببعض علوم ذكرها لا بكل العلوم .

(٩٣) يريد أن العرب لم يتكلموا إلا في العلوم التي كانت لهم معرفة بها .

(٩٤) الموافقات ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠

(٩٥) النحل : ٨٩ (٩٦) الأنعام : ٣٨

(٩٧) الموافقات ج ٢ ص ٨٠ - ٨٢

وفي العصر الحديث نجد من بين علمائنا الأفاضل من يتصدى للغلاة الذين حملوا القرآن كل علوم الأولين والآخرين ، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فقد قال في تقريره لكتاب « الإسلام والطب الحديث » الذى تحدثنا عنه من قبل :

« لست أريد من هذا - يعنى ثناءه على الكتاب ومؤلفه - أن أقول : إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمي المعروف ، وإنما أريد أن أقول : إنه أتى بأصول ، وترك الباب مفتوحا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبيّنوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذى هم عايشون فيه » (٩٨) .

\*\*\*

... وهكذا نجد لكل من فكرتى الغلو والاعتدال فى قضية القرآن وما حوى من العلوم مؤيدين ومعارضين من بين علمائنا القدامى والمحدثين .  
والذى نرتضيه فى هذا الشأن هو ما يلى :

١ - أن القرآن حوى كثيرا من علوم الدنيا والدين تصرّحاً أو تلميحاً .  
٢ - أن اهتمام القرآن بعلوم الدنيا لا يقل عن اهتمامه بعلوم الدين ، لأن علوم الدنيا تؤيد الدين ، وتحميه ، وتفتح الطريق أمامه ، وإلا فما السر فى امتنان الله سبحانه - على داوود عليه السلام وقومه بقوله : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون » ؟ (٩٩) .  
وقوله : « ولقد آتينا داوود منا فضلا ، ياجبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد \* أن اعمل سابغات وقدر فى السرد ، واعملوا صالحا ، إني بما تعملون بصير » (١٠٠) .

وعلى أى أساس غير علوم الدنيا يمكن أن نستجيب لأمر الله سبحانه « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. » ؟ (١٠١) .

---

(٩٨) الإسلام والطب الحديث ص(٥٤) . وانظر ما كتبه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنارجا ص ٧ . وما كتبه المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى العدد ٤٠٧ - ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجلة الرسالة ( ابريل سنة ١٩٤٦ ) وما كتبه المرحوم الأستاذ الشيخ أمين الخولى فى كتابه ( التفسير : معالم حياته ، منهجه اليوم ) عند الكلام عن التفسير العلمى

(١٠٠) سبأ : ١٠ ، ١١

(٩٩) الأنبياء : ٨٠

(١٠١) الأنفال : ٦٠

٣ - أن العلم لا يقف عند غاية ، وأن الكون مليء بأسرار لا تحصى : ومهما كشف الإنسان من حجب عن أسرار هذا الكون ، فلن يستوعب كل مكنونه من علوم ومعارفه ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في نحو قوله عز وجل :  
« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (١٠٢) .

وقوله : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون » (١٠٣) .

وقوله : « سنريم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (١٠٤) .

ولن يحيط بكل شىء علما إلا الله خالق الكون ومبدعه :

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (١٠٥) .

« وهو بكل خلق عليم » (١٠٦) .

« وكنا بكل شىء عالمين » (١٠٧) .

« وكان الله بكل شىء عليما » (١٠٨) .

٤ - أن الله - سبحانه - لا يرضى للإنسان الذى استخلفه فى الأرض واستعمره فيها أن يقنع بالقليل من العلم ، أو ينام عن استجلاء ما احتواه الكون من أسرار ، بل طلب إليه - كما قدمنا - فى اصرار وإلحاف أن يتعرف على ما فى الكون من كنوز العلم والمعرفة ، بالنظر والتأمل ما وسعه ذلك « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (١٠٩) وبالرجوع الى العلماء المختصين فيما وقفت قدرته دونه « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١١٠) .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الظواهر الكونية ، ثم تحتّم هذه الآيات بنحو قوله تعالى : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » (١١١) .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١١٢) .

« إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » (١١٣) .

« إن فى ذلك لآيات للعالمين » (١١٤) .

(١٠٣) يس : ٣٦

(١٠٥) الملك : ١٤

(١٠٧) الأنبياء : ٨١

(١٠٩) يونس : ١٠١

(١١١) الأنعام : ٩٨

(١١٣) النحل : ٦٧

(١٠٢) الأسراء : ٨٥

(١٠٤) فصلت : ٥٣

(١٠٦) يس : ٧٩

(١٠٨) الأحزاب : ٤٠

(١١٠) الأنبياء : ٧

(١١٢) الرعد : ٣

(١١٤) الروم : ٢٢

ولسنا نفهم من هذه العبارات وأمثالها إلا أن الله يهيب بأولى الألباب والعقول أن يفتحوا أبصارهم وبصائرهم على آياته التي بثها في الأنفس والأفاق ليتكشف لهم بعض ما حواه الكون من علوم وأسرار تشهد أولاً على قدرة الله وعلو سلطانه ثم لتكون لهم هذه الثروة العلمية - فيما بعد - مصدر قوة وعزة ومنعة في حياة سلاحها العلم والمعرفة .

٥ - لا شك أن القرآن الكريم يتحدث الى عقول الناس جميعاً من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو يسائر حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن ، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة ، وقانون الدين الذي جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض» (١١٥) .

ولا شك أن في القرآن الكريم نصوصاً يفهمها العربي وقت نزول القرآن على نحو ما وصل اليه العلم في زمانه ، ولا يكاد يخرج فهمه عن حدود دلالة النص ، ويفهمها العربي في العصر الحديث على ضوء ما وصل اليه العلم في زمانه فهماً آخر لا يخرج هو أيضاً عن دلالة النص ومثال ذلك : قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما » فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل اليه العلم في زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال : « كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق للأرض أهلاً ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات » (١١٦) . وفسرها بعض علماء العصر الحديث على ضوء ما انتهى اليه العلم في زمانه فقال :

« قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها . . . وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم وقد قال العلماء : إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً ، كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات ، وهذه السيارات طاقت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها ، والأرض واحدة من هذه السيارات ، فهي بنت الشمس ،

(١١٥) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ١٥٨

(١١٦) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٧ ط : الحلبي

والشمس هي المركز لكل هذه السيارات . . .» (١١٧) .  
 ولا نكاد نجد تعارضاً بين الفهمين ، والآية - على فرض صحة الرأي  
 الثاني - تتسع لهما وذلك من وجوه الإعجاز القرآني .  
 غير أن بعض الذين فتنوا بنظرية أن القرآن حوى كل ما كان وما يكون من  
 العلوم ، بالغوا فحملوا بعض النصوص القرآنية حملاً فيه تعسف ظاهر وتكلف  
 غير مقبول على بعض العلوم ومصطلحاتها التي جدت ولم يكن للعرب عهد بها  
 من قبل ، بل وعلى بعض النظريات العلمية التي لم تستقر بعد ، ومن لم  
 تستخفهم هذه النزوة العلمية قرروا : أن هذا تأويل للقرآن على غير تأويله -  
 يقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى الماغوط - رحمه الله - في تقريره  
 لكتاب (( الإسلام والطب الحديث )) :

« يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي ندرسه بها ، بل نعلم إلى الآية ،  
 ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناهما بها » (١١٨) .  
 ويقول في أحد دروسه التي كان يلقيها في تفسير القرآن الكريم :  
 « وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية ، ووجد عندهم  
 مرض آخر هو : الغرور بالفلسفة ، وتأويل القرآن ليرجع إليها ، وتأويله وفقاً  
 لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها وذلك خطر عظيم على الكتاب ،  
 فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد عن هذيان المصاب بالحمى . والنظريات التي لم  
 تستقر بعد لا يصح أن يُردَّ إليها كتاب الله » (١١٩) .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله تعالى :  
 « كل ما يجب على المسلم أن يؤمن به : أن كتابه الإلهي يأمر بالبحث  
 والتفكير ، ولا ينهيه عنه ، ولا يصدّه عن النظر والتأمل في مباحث الوجود  
 وأسرار الطبيعة وحالات الحوادث كلها ، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق  
 بين نصوصه وبين النظريات العلمية كلها ، بل ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها  
 العلماء ثابتة مقررة وهي عرضة بعد قليل للنقض والتبديل » (١٢٠) .

\* \* \*

(١١٧) تفسير سورة لقمان للأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ص ١٣ ولبعض المفسرين الأقدمين  
 أقوال قريبة من هذا المعنى فراجع كتب التفسير لهذه الآية .

(١١٨) الإسلام والطب الحديث ص ٣

(١١٩) الدروس الدينية للشيخ محمد مصطفى المراغي لسنة ١٣٥٦هـ ص ٤٢

(١٢٠) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠٦ ط : دار الكتاب العربي ببيروت .

ويقول في موضع آخر :

« فمن الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول ، ولكن ليس من الحق أن نزعم : أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب ، مندرج في ألفاظه ومعانيه ، فإن كثيرا من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح ، ويبطل منها ما يبطل ، ولا تستغنى على الدوام عن التعديل وإعادة النظر من حين إلى حين » (١٢١)

ويبدو لنا أن هؤلاء الغلاة حملوا القرآن الكريم ما لا يحتمل من علوم ونظريات حتى جعلوه مصدراً لجوامع الطب ، وضوابط الفلك ، ونظريات الهندسة ، وقوانين الكيمياء ، ومعادلات الرياضة . . . إلخ، حسبوا ، أن ذلك يخدم القرآن الكريم ، ويبرز جانباً هاماً من جوانب اعجازه ، وهذا وهم منهم ، فإن مثل هذا التكلف لا يبرز الاعجاز ، وإنما يذهب بالإعجاز !! . . . وليعلم هؤلاء الغلاة أن القرآن الكريم غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسان الاجتماعي في اصلاح الحياة ، ورياضة النفس ، والرجوع بها إلى الله !! . . .

وليعلموا - أيضا - أن من الخير لهم ولكتابتهم أن لا يسلكوا هذا المسلك في فهم القرآن وتفسيره ، رغبة منهم في اظهار اعجازه ، وصلاحيته للتمشي مع التطور العلمي في مراحل الزمنية المتتابعة ، وحسبهم وحسب القرآن إعجازاً أن لا يكون فيه نص يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وأنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدَّ ويجد من نظريات وقوانين تقوم على أساس من الحق وتستند إلى أصل صحيح (١٢٢)

\* \* \*

(١٢١) التفكير فريضة اسلامية للعقاد ص ٧٨ ط : دار الكتاب العربي بيروت .

(١٢٢) انظر كتابنا التفسير والمفسرون ج ٢ ص ١٥٧ - ١٦٠

## ترجمة القرآن الكريم

### ● معنى الترجمة وأنواعها :

كلمة الترجمة تطلق في اللغة على معنيين :

الأول : نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان المعنى الأصلي المترجم ، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة .

الثاني : تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى .

قال في تاج العروس : « . . . والترجمان : المُفسر للسان . وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر . قال الجوهري : وقيل : نقله من لغة إلى لغة أخرى » .

وعلى هذا فالترجمة نوعان :

١ - ترجمة حرفية .

٢ - وترجمة معنوية أو تفسيرية .

فالترجمة الحرفية : هي نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب ، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم من غير شرح ولا بيان .

والترجمة المعنوية أو التفسيرية : هي شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، إما لعدم اتساع اللغة المترجم إليها لكل معاني الأصل المترجم ، وإما لدقة بعض المعاني وعدم إدراك المترجم لها .

وواضح مما تقدم : أن الترجمة الحرفية تقوم مقام الأصل وتسده مسده ، لأنها مطابقة له تمام المطابقة ولا اختلاف بينهما إلا في اللغة فقط . أما الترجمة المعنوية فلا تقوم مقام الأصل ولا تسده مسده لأنها لا تطابقه وانما تطابق المعنى الذي فهمه المترجم وفسر به عبارة الأصل .

\*\*\*

### ● ترجمة القرآن بين المجيزين والمانعين وحقيقة الخلاف :

ولقد وقف علماء المسلمين - قدامى ومحدثون - من ترجمة القرآن الكريم

موقفين متعارضين : منهم من يقول بعدم جوازها ، ومنهم من يقول بجوازها ، وكل من الفريقين يبنى رأيه على أدلة يراها سليمة من وجهة نظره . ولا نريد أن نطيل بذكر أدلة الفريقين ، لأن الخلاف بينهما صوري لا حقيقة له : فكل منهما ينظر من زاوية معينة غير التي ينظر منها الآخر : فالقائلون بعدم جواز ترجمة القرآن الكريم ينظرون إلى الترجمة الحرفية فيرون أنها غير ممكنة ولا جائزة . والقائلون بالجواز ينظرون إلى الترجمة المعنوية أو التفسيرية فيرونها ممكنة وجائزة . ولو كان ملحظ الفريقين واحداً ما وقع هذا الخلاف الذي احتدم بين العلماء من زمن قريب : وكان له فيما بينهم مساجلات ومناظرات شهدتها منابر الجمعيات والمنتديات ، وسجلتها أمهات الصحف والمجلات والنشرات، ونال بعضهم من بعض حتى تراموا بالزندقة والإلحاد !! . . . لو أن الفريقين حرروا موضع النزاع لاتفقوا على قول واحد ، وهو : «أن الترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ولا جائزة ، أما الترجمة المعنوية فممكنة وجائزة ، بل وقد تكون واجبة» .

هذه حقيقة لا أظن عاقلاً ينازع فيها ، أو مسلماً يتحرج من القول بها ، ونوضح ذلك فنقول :

أما ان الترجمة الحرفية للقرآن الكريم غير ممكنة ولا جائزة : فذلك لأن الترجمة الحرفية معناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذواً بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته ، وأسلوبها محل أسلوبه ، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعاني المقيدة بكييفياتها البلاغية ، وأحكامها التشريعية ، وهذا غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز ، وذلك لأن القرآن الكريم - كما سبق أن بينا - نزل لغرضين أساسيين :

أولهما : كونه آية دالة على صدق النبي محمد ﷺ فيما يبلغه عن ربه ، وذلك بكونه معجزاً للبشر ، لا يقدرّون على الإتيان بسورة من مثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك .

وثانيهما : هداية الناس لما فيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم .

أما الغرض الأول وهو كونه آية على صدق النبي محمد ﷺ فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقاً ، فإن القرآن - وإن كان الإعجاز به في جملته لعدة معان كالأخبار بالغيب واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل ، وغير ذلك مما عدّ من وجوه إعجازه - إنما يدور الإعجاز السارى في كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة ، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقاً ، فإن

اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة ولكن لكل لغة خواصها التي لا يمكن إن يشاركها فيها غيرها من اللغات ، وإذن فلو ترجم القرآن ترجمة حرفية - وهذا محال - لأضاعت أحواس القرآن البلاغية<sup>(١)</sup> ، ولنزل القرآن من مرتبته المعجزة إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر ، ولفات هذا المقصد العظيم الذي نزل القرآن من أجله على محمد ﷺ .

وأما الغرض الثاني ، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم في الدارين ، فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه ، وهذا يرجع بعضه إلى المعاني الأصلية التي يشترك في تفهمها وأدائها كل الناس وتقوى عليها جميع اللغات ، وهذا النوع من المعاني يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه ، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعاني الثانوية ، ونجد هذا كثيراً في استنباطات الأئمة المجتهدين<sup>(٢)</sup> ، وهذه المعاني الثانوية لازمة للترآن الكريم وبدونها لا يكون قرآناً . والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعاني الأولية فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعاني الثانوية ضرورة أنها لازمة للغة القرآن دون غيرها من سائر اللغات .

ومما تقدم يعلم : أن الترجمة الحرفية لا يمكن أن تقوم مقام الأصل في تحصيل كل ما يقصد منه ، لما يترتب عليها من ضياع الغرض الأول برمته ، وفوات شطر من الغرض الثاني .

وأما أن الترجمة المعنوية ممكنة وجائزة : فذلك لأن الترجمة المعنوية - كما قلنا آنفاً - عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، وذلك بأن يفهم

---

(١) فمثلاً لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى في الآية (٢٩) من سورة الاسراء « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ترجمة حرفية لأنى بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في الستق ، وعن مدها غابة المد ، ومثل هذا التعبير في اللغة المترجم اليها ربما كان لا يؤدي المعنى الذي قصده القرآن ، بل قد يستنكر صاحب هذه اللغة هذا الوضع الذي ينهى عنه القرآن ، ويقول في نفسه : إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذي نهى عنه القرآن ، ولأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه . ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة المعنى الذي أراداه القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ . أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة معنوية فإنه يأخذ بالنهي عن التبذير والتفتير مصورين بصورة شنيعة يفر منها الإنسان حسبها يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها ، ويناسب الف من يتكلم بها . ومن هنا يتبين أن الغرض الذي أراده الله من هذه الآية يكون مفهوماً بكل سهولة ووضوح في الترجمة المعنوية دون الترجمة الحرفية .

(٢) من هذا القبيل دلالة قوله تعالى في الآية (٢٣٣) من سورة البقرة « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن » على أن الولد ينسب إلى أبيه ولا ينسب إلى أمه فهذا معنى ثانوي يستنتج من دلالة الكلام في لفظ (له) أما المعنى الأصلي الذي سبقت له الآية فهو وجوب الانفاق على الوالدات .

المترجم المعنى المراد من الأصل على قدر ما يتيسر له ثم يُعَبَّر عنه بلغة أخرى على قدر ما تتسع له هذه اللغة .

وعلى هذا فترجمة القرآن ترجمة معنوية لا تعدو أن تكون تفسيراً له بلغة غير لغته التي نزل بها ، وحيث انقضت كلمة المسامحة وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية بدون إحاطة بجميع مراد الله تعالى ، فإننا لا نشك في أن الترجمة المعنوية للقرآن داخلة تحت هذا الإجماع أيضاً ، لأن عبارة الترجمة المعنوية مجازية لعبارة التفسير لا لعبارة الأصل القرآني ، فإذا كان التفسير مشتملاً على معنى الأصل وشرحه : بحل ألفاظه فيما يحتاج تفهمه إلى حل وبيان مراده فيما يحتاج إلى بيان ، وتفصيل معناه فيما يحتاج إلى تفصيل ، وتوجيه مسأله فيما يحتاج إلى توجيه ، وتقرير دلالة فيما يحتاج إلى تقرير . . . ونحو ذلك من كل ما له تعلق بتفهم القرآن وتدبره ، كانت الترجمة المعنوية أيضاً مشتملة على هذا كله لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن .

وقصارى القول : أن في كل من التفسير والترجمة المعنوية بيان ناحية أو أكثر من نواحي القرآن التي لا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربي مبين ، وليس في واحد منها إبدال لفظ مكان لفظ القرآن ، ولا إحلال نظم محل نظمه بل لفظ القرآن ونظمه باقيا على حالهما صورة ومعنى من غير تحلل ولا نقصان .

وإذ قد انتهينا إلى أن ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية غير ممكنة ولا جائزة ، فمن الحق علينا أن نقرر بعد ذلك أن ترجمات القرآن التي زعم أصحابها أنها ترجمات حرفية له ، كماها ترجمات باطللة لا تقوم مقام القرآن . ولا تعبر عنه تعبيراً صادقا ، ولا يجوز اسلم أن يطمنن إليها أو يعتمد عليها في استخلاص عقيدة أو استنباط حكم .

\*\*\*

#### ● وجوب الترجمة المعنوية إذا تعينت طريقا لتبليغ الدعوة :

وإذ قد انتهينا - أيضا - إلى أن ترجمة القرآن ترجمة معنوية أمر يمكن وجاز ، فمن الحق علينا - أيضا - أن نقرر أن الترجمة المعنوية لا تقف عند حد الجواز فقط ، بل تتعداه - أحيانا - إلى مرتبة الوجوب ، فإذا كان لا سبيل إلى تبليغ دعوة القرآن لمن لا يعرفون اللسان العربي إلا عن طريق الترجمة المعنوية ، فالواجب على المسلمين - وجوبا كفاثا - أن يقوموا بهذه الترجمة ، وأن يجعلوها

في تناول كل إنسان بلغته التي يتخاطب بها ، حتى تبرأ ذمتهم من واجب الدعوة الى الله وإلى كتابه .

ومن زعم أن ترجمة القرآن على هذا النحو قد تؤدي إلى بلبلة وتشكك في القرآن ضرورة اختلاف الترجمات وعدم اتفاقها فذلك زعم غير مقبول ، لأننا لم نقل إن الترجمة المعنوية حلت محل القرآن وأخذت كل خصائصه ومميزاته ، وإنما قلنا : إنها ترجمة للتفسير الذي يخضع لأصول التفسير وقواعده ، والاختلاف في التفسير لا يعيب القرآن لأنه اختلاف في أفهام البشر وليس اختلافاً في كلام الله عز وجل .

ومن زعم أن ترجمة القرآن على هذا النحو تعوق غير العرب عن تعلم العربية التي هي المدخل الأساسي لفهم الاسلام من مصادره الأصلية ، فذلك زعم لا نلتفت إليه ، لأن تعلم العربية بالنسبة لمن لا يعرفونها - وإن كان أمراً ينبغي أن نحرص عليه - ليس فرضاً ، أما الإعلام بالدعوة الإسلامية وما تضمنه كتابها بأى لسان فهو الفرض الذي أوجب الله علينا معشر المسلمين ، ولا ينبغي لنا أن نعطل أمراً واجباً مخافة أن يعوق عن أمر لا يرى الاسلام وجوبه .

ومن زعم أن الترجمة على هذا النحو الذي أجزناه وأوجبناه أحياناً ليست جائزة على أى حال ، استناداً إلى ما فعله رسول الله ﷺ من أنه أرسل كتباً إلى هرقل وغيره ضمنها بعض آيات من القرآن الكريم كتبها باللسان العربي كما أنزلت ، كما في كتابه الى هرقل : « من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين<sup>(٣)</sup> ، و « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »<sup>(٤)</sup> .

من زعم أن الترجمة المعنوية غير جائزة استناداً إلى كتابة الرسول ﷺ النص القرآني كما هو منزل من عند الله ، فهو غافل عما فيه من إشاوة قاطعة على الجواز ، ذلك لأن الرسول ﷺ يعلم أن هرقل لا يعرف اللسان العربي ،

(٣) الأريسيون جمع أريسي وفي رواية اليريسيون . والمراد بهم من تحت امرته من العامة والفلاحين .

(٤) الآية ٦٤ من سورة آل عمران ونصها : « قل يا أهل الكتاب . . . الخ . وحديث كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل مروى في كتاب الايمان من صحيح البخارى .

ويعلم تبعاً أن الكتاب بما فيه من قرآن لا بد أن يترجم له باللغة التي يعرفها وهي اللغة الرومية ، فكان ذلك بمثابة إذن صريح منه عليه الصلاة والسلام بترجمة الآية الى غير العربية ، وقد جاء في صحيح البخارى أن هرقل دعا ترجمانه ، ثم دعا بكتاب النبي ﷺ فقرأه . . إلى آخره .

\*\*\*

### ● شروط الترجمة المعنوية :

سبق أن قلنا إن تفسير القرآن الكريم من العلوم التي فُرض على الأمة تعلمها . والترجمة المعنوية تفسير للقرآن بغير لغته ، فكانت - أيضاً - من الأمور التي فُرضت على الأمة ، بل هي أكد ، لما يترتب عليها من المصالح المهمة : كتبليغ معاني القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية ولا يعرفون لغة العرب ، وأيضا حماية العقيدة الاسلامية من كيد الملحدين ، والدفاع عن القرآن الكريم بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة . وتعاليم فاسدة ، ليظهروا القرآن لمن لا يعرف لغته في صورة تنفر منه وتصد عنه ، وكثيراً ما ضجت الأصوات بالشكوى من هذه الترجمات الفاسدة ، لهذا نرى أن نذكر الشروط التي يجب أن تتوفر وتراعى في الترجمة المعنوية حتى تكون ترجمة صحيحة مقبولة . واليك هذه الشروط :

أولاً : أن تكون الترجمة على شريطة التفسير ، لا يعوّل عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة في الشريعة الاسلامية ، فلا بد للمترجم من اعتماده في استحضار معنى الأصل على تفسير مستمد من ذلك ، أما إذا استقل برأيه في استحضار معنى القرآن أو اعتمد على تفسير ليس مستمداً من تلك الأصول فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها ، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمداً من تلك المناهل معتمداً على هذه الأصول .

ثانياً : أن يكون المترجم بعيداً عن الميل الى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن . وهذا شرط في المفسر أيضاً ، لأنه لو مال واحد منها الى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره ، فاذا بالمفسر أو المترجم يفسر أو يترجم وفقاً لهواه وتبعاً لميوله فيصبح بذلك بمغزل عن القرآن وهداه ، ومتقولاً على الله بالهوى والغرض .

ثالثاً : أن يكون المترجم عالماً باللغتين : المترجم منها ، والمترجم إليها ،

خبيراً بأسرارهما ، يعلم جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منها . وكثيراً ما وضعت ترجمات للقرآن ممن لا يحيطون علماً بكلتا اللغتين أو باحدهما فجاءت مليئة بالأباطيل والأكاذيب على الله وكتابه .

\* \* \*

### ● أمثل الطرق لترجمة القرآن الكريم :

وأمثل الطرق لترجمة القرآن الكريم أن يراعى في الترجمة ما يلي :

- ١ - أن تتوفر فيها الشروط السابقة .
- ٢ - أن ينص في مقدستها على أنها ليست ترجمة حرفية وإنما هي ترجمة للمعاني التي فهمها المترجم أو غيره من القرآن ، فإن كان فيها خطأ فهو منسوب إلى المترجم أو المفسر وليس منسوبا إلى الله سبحانه .
- ٣ - أن يكتب النص القرآن في أعلا الصفحة ، ثم يكتب التفسير بعده في نفس الصفحة ثم تكتب الترجمة بعد التفسير في الصفحة ذاتها . حتى لا يتوهم متوهم أن هذه ترجمة حرفية للقرآن ، وحتى يكون النص القرآني وتفسيره ، وترجمة هذا التفسير بين يدي القارئ بحيث يمكنه - إن كان من أهل النظر والرأى - أن يقارن بين كل ذلك ويتبين أين يقع الخطأ وأين يقع الصواب .

\* \* \*